



عَبْقَرِيَّةُ مُحَمَّدٍ

عباس ممدود العفاد

طبعة جديدة منقحة ومراجعة،



مقدمة

تعهد بنا هذه المقدمة ثلاثين سنة، إلى اليوم الذي سمعت فيه أول اقتراح بتأليف كتاب عن محمد عليه السلام.

وكنيت أقيم يومئذ في ضاحية العباسية البحرية على مقربة من الساحة التي كانت معدة للاحتفال بالمولد النبوي في كل عام.

ولنا رهط من الأصدقاء المشتغلين بالأدب، يشتركون في قراءة كتبه العربية والإفرنجية، ويترددون معاً على الأحياء الوطنية، وقلماً يترددون على غيرها، فلا يزالون منتقلين فترة بعد فترة، بين الحى الحسيني والحى الزينجي، أو بين منشية القلعة، وضاحية العباسية، أو بين الروضة والخليج.. على حسب المناسبات، وعلى غير مناسبة في كثير من الأوقات..

وكان رهطاً له نقائض الدنيا مجتمعات: نقائض الشباب، ونقائض الحياة الفنية، ونقائض الاختلاف في البيئة بين ناشئ في العاصمة وناشئ في الريف وناشئ في الصعيد وناشئ في الثغور، إلى غير ذلك من النقائض التي كانت حلية لهذه الجماعة، ولم تكن فيها من دواعي التفرق والشقاق.

ومن عجائبها أن الذي كان يغريها بالأحياء الوطنية هو قراءتها في الكتب الإفرنجية التي كانت شائعة بينها؛ لأنهم كانوا يقرءون أكثر ما كانوا يقرءون كتب «ديكنز» و«هارليت» و«لي هانت» و«كارليل» وهم ككتاب مولعون بعرض الأخلاق الاجتماعية ودراسة العادات المحلية، وتشيل الريفيين والحضرين في أوضاعهم المختلفة، ولهم فصول عن الأسواق، والدكاكين، والباعة، تفيض بحسن الملاحظة، وبراعة الفكاهة، وممتعة القراءة، وتعود من يذم قراءتها أن يتحرى نظائرها حيثما راها.

ففي يوم من أيام المولد - والرهط يزورني لنؤم الساحة مجتمعين في المساء - كان الكاتب الإنجليزي العظيم «توماس كارليل» هو محور الحديث كله؛ لأنه كما

يعلم الكثيرون بين قراء العربية، صاحب كتاب «الأبطال» الذي عقد فيه فصلاً عن النبي محمد ﷺ، وجعله نموذج البطولة النبوية بين أبطال العالم الذين اختارهم للوصف والتدليل.

وإنا لنتذكر آراءه ومواضع ثنائه على النبي، إذ بدرت من أحد الحاضرين الغرياء عن الرمط كلمة نابية غضبنا لها واستكرناها لما فيها من سوء الأدب وسوء الذوق وسوء الطوية. وكان الفتى الذي بدرت منه الكلمة متحذلقاً، يتظاهر بالعرفقة، ويحسب أن التناول على الأنبياء من لوازم الاطلاع على الفلسفة والعلوم الحديثة.. فكان مما قاله شيء عن النبي والزواج، وشيء عن البطولة، فحواه أن بطولة محمد إنما هي بطولة سيف ودما!

قلت: «ويحك!.. ما سوغ أحد السيف كما سوغته أنت بهذه القولة النابية!»، وقال صديقنا المازنى: «بل السيف أكرم من هذا، وإنما سوغ صاحبنا شيئاً آخر يستحقه.. وأشار إلى قدمه!».

وارتفعت لهجة النقاش هنيهة، ثم هدأت بخروج الفتى صاحب الكلمة من الندى، واعتذاره قبل خروجه بتفسير كلامه على معنى مقبول، أو خيل إليه أنه مقبول، وتساءلنا: ما بالنا نقنع بتمجيد «كارليل» للنبي، وهو كاتب غربي لا يفهمه كما نفهمه، ولا يعرف الإسلام كما نعرفه.. ثم سألني بعض الإخوان: «ما بالك أنت يا فلان لا تضع لقراء العربية كتاباً عن محمد على النمط الحديث؟».

قلت: «أفعل.. وأرجو أن يتم ذلك في وقت قريب».

ولكنه لم يتم في وقت قريب.. بل تم بعد ثلاثين سنة!.. وشاعت المصادفة العجيبة أن تتم فصوله في مثل الأيام التي سمعت فيها الاقتراح لأول مرة.. فكتبت السطر الأخير فيه يوم مولد النبي على حسب الشهور الهجرية، واتفقت هذه المصادفة على غير تدبير مفي ولا من أحد! لأنني لم أدبر لنفسي أوقات الفراغ التي هيأت لي إتمام فصوله، وتقسيم العمل فيه يوماً بعد يوم.

والخيرة في الواقع..

والخيرة كذلك في هذا التأخير..

فإننى لو كتبت يومئذ لعدت إلى كتابته الآن من جديد، واحتجت إلى السنين الثلاثين أضيف خبرتها وقراءتها ورياضتها النفسية والفكرية إلى محصول ذلك العمر الباكر.. إذ هو عمر يستطيع المرء أن يمثل فيه إعجاباً بمحمد؛ لأنه عمر الإعجاب والحماسة الروحية.. بيد أنه لا يستطيع أن يقيسه بمقياسه وأن يشعر بشعوره فى مثل تجاربه، وفى مثل السن التى اضطلع فيها بالرسالة وإن تقارب السن هنا لضرورة لا غنى عنها لتقريب ذلك الشئ البعيد من شتى نواحيه.

أين كنا قبل تلك السنين الثلاثين؟..

إنها مسافات فى عالم الفكر والروح.. لو تمثلت مكاناً منظوراً، لأخذ المرء رأسه بيديه من الدوار وامتداد النظر بغير قرار.

كم رأى.. كم مذهب.. كم وسواس.. كم محنة.. كم مراجعة.. كم زلزال يتضعضع له الكيان وتميد معه الدعائم والأركان.. كم، وكم فى ثلاثين سنة مما يطرق نفساً لا تعفيها الحياة من التجارب والعوارض لحظة عين فى نهار.. وكم لذلك كله من أثر فى توطيد رأى وتهنئة الثوائر وتجلية الغبار.. وكم يضيف ذلك كله إلى الشباب الباكر الذى كان يحلم يومئذ بالعظمة فى كل أوج، وبالأوج المحمدى فى عليا مراتب الأنبياء!

الخيرة فى الواقع..

الخيرة فى ذلك التأخير..

واليوم ونحن نضع كتابنا هذا عن «عبقريه محمد» بين يدى القراء - لا نقول إننا قد استوفينا كما أردناه، ولا إننا فصلنا فيه الغرض الذى توخيناه.. ولكننا نقول إننا التزمنا فيه الباعث الذى أوحى الاقتراح بتأليفه لأول مرة. كأننا شرعنا فى كتابته مساء ذلك اليوم قبل ثلاثين سنة، فكتبناه ونحن نستحضر فى الذهن تبرة المقام المحمدى من تلك الأقاويل، التى يلفظ بها الأغرار والجهلاء عن حذلقه أو سوء نية، ونظرنا اتفاقاً، فإذا بأطول الفصول فيه الفصلان اللذان شرحنا فيهما موقف محمد من الحرب ومن الحياة الزوجية؛ لأنهما كانا مثار اللغظ تلك الليلة على مقربة من ساحة المولد، وكانا مثار اللغظ فى كل ما رده سفيهاً الشائنين من الأصلاء والمقتدين فى هذا الباب..

فسيرى القارئ أن «عبقريه محمد» عنوان يؤدي معناه فى حدوده المقصوده، ولا يتعداها. فليس الكتاب سيرة نبويه جديده، تضاف إلى السير العربيه والإفرنجيه، التى حفلت بها «المكتبة المحمديه» حتى الآن؛ لأننا لم نقصد وقائع السيره لذاتها فى هذه الصفحات، على اعتقادنا أن المجال متسع لعشرات من الأسفار فى هذا الموضوع، ثم لا يقال إنه استنفد كل الاستنفاد.

وليس الكتاب شرحاً للإسلام أو لبعض أحكامه، أو دفاعاً عنه، أو مجادله لخصومه.. فهذه أغراض مستوفاه فى مواطن شتى، يكتب فيها من هم نوبها ولهم درايه بها وقدرة عليها.

إنما الكتاب تقدير «لعبقريه محمد» بالمقدار الذى يدين به كل إنسان، ولا يدين به المسلم وكفى، وبالحق الذى يثبت له الحب فى قلب كل إنسان، وليس فى قلب كل مسلم وكفى.

فمحمد هنا عظيم؛ لأنه قله المقتدين فى المناقب التى يتمناها المخلصون لجميع الناس..

عظيم؛ لأنه على خلق عظيم..

وإتقاء العظمه حقها لازم فى كل أونه، وبين كل قبيل.. ولكنه فى هذا الزمن وفى عالمنا هذا ألزم منه فى أزمنة أخرى، لسببين متقاربين لا لسبب واحد: أحدهما: أن العالم اليوم أحوج مما كان إلى المصلحين النافعين لشعوبهم وللشعوب كافه.. وإن يتاح لمصلح أن يهدى قومه وهو مغموط الحق، معرض للجفوة والكنود.

والسبب الآخر أن الناس قد اجترعوا على العظمه فى زماننا بقدر حاجتهم إلى هدايتها.. فإن شيوع الحقوق العامه قد أغرى أناساً من صغار النفوس بإنكار الحقوق الخاصه، حقوق العليه النادرين الذين ينصفهم التمييز، وتظلمهم المساواه.. والمساواه هى شرعه السواد الغالبه فى العصر الحديث.

ولقد جار هذا الفهم الخاطئ للمساواه على حقوق العظماء السابقين، كما جار على حقوق العظماء من الأحياء والمعاصرين، ثم أغرى الناس بالجور بعد

الجور غرورهم بطرائف العصر الحديث، واعتقادهم أنه قد أتى بالجديد الناسخ
للقديم في كل شيء... حتى في ملكات النفوس والأذهان، وهي مزية خالدة لا
ينسخ فيها الجديد القديم.

يرون أن البخار يلغى الشراع، وربما كان الاختراع السابق أدل على القدرة،
وأبين عن الفضل من الاختراع الذي تلاه، ولم يكن ليتلوه لولا ما تقدم عليه..
وينظرون إلى أقطاب الدنيا كأن الأصل في النظر إليهم أن يتجنوا عليهم
ويثلبوا كرامتهم، ولا يثوبوا إلى الاعتراف لهم بالفضل إلا مكرهين.. بعد أن
تفرغ عندهم وسائل التجنى والطلب والافتراء..

هذه الآفة حطة تهبط بالخلق الإنساني إلى الحضيض، وتهبط بالرجاء في
إصلاح العيوب الخلقية والنفسية إلى ما دون الحضيض..

فماذا يساوى إنسان لا يساوى الإنسان العظيم شيئاً لديه؟.. وأى معرفة
بحق من الحقوق يناط بها الرجاء إذا كان حق العظمة بين الناس غير
معروف.. وإذا ضاع العظيم بين أناس، فكيف لا يضيع بينهم الصغير؟..

لهذا كان تقدير محمد بالقياس الذي يفهمه المعاصرون ويتساوى في إقراره
المسلمون وغير المسلمين، نافعاً في هذا الزمن الذي التوت فيه مقاييس التقدير..
إنه لنافع لمن يقدرُون محمداً، وليس بنافع لمحمد أن يقدرُوهُ؛ لأنه في
عظمته الخالدة لا يضار بإنكار، ولا ينال منه بغى الجهلاء، إلا كما نال منه
بغى الكفار..

وإنه لنافع للمسلم أن يقدر محمداً بالشواهد والبينات التي يراها غير
المسلم، فلا يسعه إلا أن يقدرها ويجرى على مجراها فيها.. لأن مسلماً يقدر
محمداً على هذا النحو يحب محمداً مرتين: مرة بحكم دينه الذي لا يشاركه
فيه غيره، ومرة بحكم الشرائع الإنسانية التي يشترك فيها جميع الناس.

وحسبنا من «عبقريّة محمد» أن نقيم البرهان على أن محمداً عظيم في كل
ميزان: عظيم في ميزان الدين، وعظيم في ميزان العلم، وعظيم في ميزان
الشعور، وعظيم عند من يختلفون في العقائد، ولا يسعهم أن يختلفوا في

الطبائع الأدمية، إلا أن يرين العنت على الطبائع فتتحرف عن السواء وهي خاسرة بانحرافها، ولا خسارة على السواء.

إن عمل محمد لكافٍ جد الكفاية لتحويله المكان الأسنى من التعظيم والإعجاب والثناء..

إنه نقل قومه من الإيمان بالأصنام إلى الإيمان بالله، ولم تكن أصناماً كـأصنام يونان، يحسب للمعجب بها ذوق الجمال إن فاته أن يحسب له هدى الضمير.. ولكنها أصنام شائعات كتعاويذ السحر التي تفسد الأنواق وتفسد العقول.. فنقلهم محمد من عبادة هذه الدمامة إلى عبادة الحق الأعلى.. عبادة خالق الكون الذى لا خالق سواه، ونقل العالم كله من ركود إلى حركة، ومن فوضى إلى نظام، ومن مهانة حيوانية إلى كرامة إنسانية، ولم ينقله هذه النقلة قبله ولا بعده أحد من أصحاب الدعوات..

إن عمله هذا لكافٍ لتحويله المكان الأسنى بين صفوف الأخيار الخالدين، فما من أحد يضمن على صاحب هذا العمل بالتوقير ثم يوجد بالتوقير على اسم إنسان. إلا أننا نمضى خطوة وراء هذا، حين نقول إن التعظيم حق «لعبقرية محمد» ولو لم تقترن بعمل محمد..

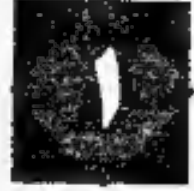
لأن العبقرية قيمة فى النفس قبل أن تبرزها الأعمال، ويكتب لها التوفيق، وهى وحدها قيمة يغالى بها التقويم..

فإذا رجع بمحمد ميزان العبقرية، وميزان العمل، وميزان العقيدة؛ فهو نبي عظيم وبطل عظيم وإنسان عظيم.

وحسبنا من كتابنا هذا أن يكون بنائاً تومئ إلى تلك العظمة فى آفاقها، فإن البنان لأقدر على الإشارة من الباع على الإحاطة، وأفضل من عجز المحيط طاقة المشير..

عباس محمود العقاد

علامات مَولِد



عالم:

كان عالماً متداعياً قد شارف النهاية.. خلاصة ما يقال فيه إنه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام..

أى أنه فقد أسباب الطمأنينة فى الباطن والظاهر.. طمأنينة الباطن التى تنشأ من الركون إلى قوة فى الغيب، تبسط العدل، وتحمى الضعف، وتجزى الظلم، وتختار الأصلح الأكمل من جميع الأمور..

وطمأنينة الظاهر التى تنشأ من الركون إلى دولة تقضى بالشريعة، وتفصل بين البغاة والأبرياء، وتحرس الطريق، وتخفف العائثين بالفساد..

ببزنطة قد خرجت من الدين إلى الجدل العقيم الذى أصبح بعد ذلك علماً عليها، وتضالعت سطوتها فى البر والبحر حتى طمع فيها من كان يحتمى بجوارها..

وفارس قد سخر فيها المجوس من دين المجوس.. وكمنت حول عرشها كرامن الفيلة، ويواعث الفتن، ونوازع الشهوات..

والحبشة ضائعة بين الأوثان المستعارة من الحضارة تارة ومن الهمجية تارة، وبين التوحيد الذى هو ضرب من عبادة الأوثان.. ثم هى بعد هذا التشويه فى الدين، ليست بذات رسالة فى الدنيا ولا بذات طور من أطوار التاريخ.. فليس لها عمل باق فى سجل الأعمال الباقيات.

عالم يتطلع إلى حال غير حاله.. عالم يتهىء للتبديل أو للهدم ثم للبناء..

أمة:

وبين هذه الدول المتداعيات، أمة ليست بذات دولة، ولكنها تتأهب لإقامة

دولة.. هي أمة العرب وقد تيقظت لوجودها وشعرت بمكانتها، كما شعرت بالخطر عليها وبمواضع النقص منها.

فى أيديها تجارة العالمين كلها..

فإذا سارت القوافل من خليج فارس إلى بحر الروم، فهي تسير فى البادية بين حراس من العرب لا سلطان عليهم للدول المتداعية.. أو هم قد شعروا بذلك السلطان حيناً فى إبان الصولة الرومانية والصولة الفارسية، ثم علموا أنهم مالمكون لزامهم، يرضون فتتصل الأرزاق بين المشرق والمغرب، وبين المغرب والمشرق، ويغضبون فتبور التجارة وينضب المورد وتكسد الأسواق.

وإذا سارت القوافل من اليمن إلى الشام أو من بحر القلزم إلى بحر الروم، فهي فى جيرة الأعراب من كلتا الطريقين.

أمة تيقظت لوجودها، وعرفت شأنها بين من يحدقون بصحرائها.. ثم رأت هؤلاء المحيطين بها يجرون عليها، ويريدون إخضاعها وابتلاعها..

فهزقل الرومى يرسل إلى مكة من يحكمها، وأبرهة الحبشى يزحف إلى مكة بمن يهدم كعبتها ويستبدل بها كعبة غيرها، وفارس تطغى على شرق البلاد وعلى جنوبها..

خطر من خارجها، يزيد الأمة يقظة وانتباهاً لوجودها..

وخطر من داخلها، يدفع بها إلى الزوال أو إلى استكمال النقص المستشري فى حياتها..

مدينة واحدة تجتمع فيها ثروة الجزيرة، وعصبة واحدة من سادة القوم تجتمع فى أيديها ثروة المدينة..

حالة لا استقرار فيها..

فمن هنا الترف، والطمع، والخمر، والقمار، والمتعة، وتسخير الأقوياء للضعفاء..

ومن هنا الفاقة، والحسرة، والشك فى صلاح الأمور..

ولكنه شك يبحث ويضطرب، وليس بالشك الذى يستجم ويستكين فحيثما

اجتمع أناس من أولى الرأى يذكرون العقيدة وطمأنينة الضمير، فهناك هاتف بينهم بسوء ما هم عليه. اجتمع أناس بنخلة لإحياء عيد العزى، فقال رجل منهم لإخوانه: «والله ما قومكم على شيء وإنهم لفي ضلال.. فما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، ومن فوقه يجرى دم النصور. يا قوم التمسوا لكم ديناً غير هذا الدين الذى أنتم عليه».. ثم تفرقوا، فمنهم من تنصر، ومنهم من اعتزل الأوثان، ومنهم من انتظر حتى سمع دعوة الإسلام قلباًها.. وكان الذى تنصر وسمع دعوة الإسلام ورقة ابن نوفل الذى كتب له أن يتلقى بشارة النبی العربى عند ظهوره ويلقى إليه بالبشارة.

هؤلاء شكوا وبحثوا عن العقيدة وطمأنينة الضمير..

وغيرهم شكوا وبحثوا عن وازع من الضمير، ووازع من السلطان فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم يتعاهدون باسم الله المنتقم ليكون مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه.. وذلك حلف الفضول الذى شهدته النبی العربى فى شيايه، وقال فيه: «ما أحب أن يكون لى بحلف حضرت فى دار ابن جدعان حمر النعم».

حالة لا تستقر، ولا تزال فى طلب الاستقرار..

وأمة يقظى!..

وخطر محقق بها مما حولها، ومما هو فى دخالها وأحشائها..

حالة تنذر بالزوال، وقلما تزول أمة يقظى فى أوان انتباهها.. فذلك إذن حالة

للتبدیل والتجديد.

قبيلة:

وقبيلة فى تلك الأمة، فى تلك المدينة.. لها شعبتان:

إحداهما من أصحاب الترف والطمع واستبقاء ما هو قائم، كما كان قائماً

على هواها..

والأخرى من أصحاب التقوى والسماحة والتوسط بين مقام القوى الذى

يحور ويطعى ويستبغى أداة الجور والطغيان، ومقام الصعيف الذى يحتمل
الأذى ويصير على الكربة ولا يملك مع السيد الأمر إلا أن يذعن له، ويأكل من
فضلات يديه

بيت

وبيت من تلك الشعبة الوسطى له كرم النسب العريق، وليس له لؤم الثروة
الجامحة والكبرياء الجائحة، والقسوة على من دونه من المحرومين.

ذلك هو بيت عبد المطلب من صمم قريش ومن تزايدها الطلأ، وإن لم يكن
معدوداً من أثرياء القبيلة العرشية فى ذلك الأور

ورأس هذا البيت - عبد المطلب - رجل قوى الحلق، قوى الإيمان فيما آمن
به، حكيم مع قوة طبعه وشدة إيمانه، خلى ن ينجب العقب الذى يبشر بدعوة
ويوضح عن دين.

مدو لئن عاش له عشرة بدين لينحروا حدهم عند الكعبة ثم أحله قومه
وأحلت له عرافة من نذره، فأبى أن يتحلى حتى يستوثق من رضا الرب ورضاه
ضميره..

سألهم العرافة: «كم لنية فيكم؟».

قالوا «عشر من الإبل».

قالت: «فتقربوا إذن بعشر من الإبل واضربوا على الفتى وعليها بالقداح .
فإن حرجت على صاحبكم فربوا من الإبل حتى يرضى بركم» فما زالوا
يزيدون حتى بلغت الإبل مائة وحرجت القداح عليها فهتفت قريش بعبد
المطلب: «لقد رضى ربك. فأطلق مئتك». وكان خليفاً بمن يريد أن يتحلى
ويقطع أن يقبل ولا حرج عليه، ولكن عبد المطلب لم يكن من المنحطلين
المتعطلين، فأبى إلا أن يضرب عليها القداح ثلاث مرات، ثم نصرت الإبل
للجياج من الناسى والسباع.

وجاء القائد الحبشى يهزم الكعبة ويسطو على الإبل والنساء. فلما ساءه

عبد المطلب أن يرد إليه إبله، قال له مقال السياسي المخرج المداور بالكلام:
«أراك تسأل عن إبلك ولا تسأل عن الكعبة».

فأجابه عبد المطلب جواب الحكيم المذموم: «أب لإبل قاتنا ربها وأما البيت
فله رب محمبه!».

فكان إيمانه إيماناً كفيلاً لهداء السياسة، ولم يكن إيمان العجز والتواكل
والاستسلام..

ومن كان له هذا الحق، وهذا الصمير، وهذا الإيمان، وهذه الرئاسة، فييس
من عجب أن ينجب نبياً في زمان يستدعي الأنبياء، ومكان مهيباً لهم دون كل
مكان.. بل العجب أن يكون الأمر غير ما كان.

أب :

وإذا كان عبد المطلب جداً صاحباً لنبي كريم، فأبته عند الله نعم الأب لذلك
النبي الكريم..

لأنكم كان بضعة من عالم الغيب، أرسلت إلى هذه الدنيا لتعقب فيها نبياً
وهي لا تراه، ثم تعود.

كان إسماً من طيبة الشهداء، يقحه إلى القلب الإنساني بكل ما فيه من حب
وحنو ورحمة. فهو الفتى الذي اسمه عبد الله وأبى اختيار لبقاء، فجاشت له
شفقة قومه حتى تركه لهم القدر إلى حين. وهو الفتى الذي تحدثت الفتيات في
الحدود بوسامته وحيثه، وودت مئات متهن لو تعمق منه بنعمة الزواج، وهو
الفتى الذي أقدم مع عروسه ثلاثة أيام، ثم سافر ليتحرر فيدا هي السفرة التي لا
يؤوب منها لذهابون، وهو الفتى الذي مات وهو غريب، وولد له سله الكريم
وهو نعين.

وهكذا تتمثل البصائر الخاشعة بء الأنبياء والسلالة التي تصل بين الأحره
والديا وبين عالم البقاء وعالم الفتاء..

رجل:

عالم ينطلق إلى مبي.. وأمة تتطلع إلى نبي، ومدينة تنطلق إلى نبي، وقبيلة وبيت وأنوار أصلح ما يكونون لأنجب ذلك النبي.

ثم ها هو ذا رجل لا يشركه رجل آخر في صفاته ومقدماته، ولا يدانيه رجل آخر في مناقبه الفضلى اتى هيأته لتلك الرسالة الروحية المأمولة في المدينة . وفي الجزيرة، وهي العالم بأسره.

نبي عريق النسب، وليس بالوضيع الغامل، فيصغر قدره في أمة الأنساب والأحساب..

فقير.. وليس بالنسي المترف، فيطغيه بأس البلاء والأعساء، ويعلق قلعه ما يغلق القلوب من جشع لهوة واليسار.

نقم من رحماء . فليس هو بالمدلل الذي يقتل فيه التدليل ملكة الجذ والإرادة والاستقلال، وليس هو بالمهجور المنبوذ الذي تقتل فيه القسوة روح الأمل وعرة النفس وسليقة الطموح، وقصيلة العطف على الآخرين.

خبير بكل ما يختبره العرب من صروب العيش في البادية والحاضرة، تربى في الصحراء وألف المدينة، ورعى القطعان، واشتغل بالتجارة، وشهد الحروب ولأحلاف، واقترب من السراة ولم يبتعد من الفقراء.

فهو حلالة الكفاية لعسة في خير ما تكون عليه الكفاية العربية..

وهو على صلة بالنبيا التي أحاطت بقومه.. فلا هو يحلها فيعمل عنها، ولا يعامسها كل انغامسة فيغرق في لجتها

أصلح رجل من أصلح بيت في أصلح زمان لرسالة النجاة المرقوبة، على غير علم من الدنيا التي ترقبها..

ذلك محمد بن عبد الله عليه السلام..

قد ظهر والمدينة مهية لظهوره، لأنها محتاجة إليه، والجزيرة مهية لظهوره؛ لأنها محتاجة إليه، والدنيا مهية لظهوره؛ لأنها محتاجة إليه، ومذا من علامات الرسالة أصدق من هذه العلامة؟ . وماذا من تدبير المقادير أصدق من هذا

التدبير؟ . وماذا من أساطير المخترعين للأساطير أعجب من هذا الواقع، ومن هذا التوفيق؟.. علامات الرسالة اصادقة هي عقيدة تحتاج إليها الأمة، وهي أسباب تمهد لظهورها، وهي رحل بصطلع بأمانتها في أوانها.

فإذا تجمعت هذه العلامات، فماذا يلجئنا إلى علامة غيرها؟.. وإذا تعذر عليها أن تجتمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها؟..

خلق محمد بن عبد الله ليكون رسولاً مبشراً بدين، وإلا فلأى شيء خلق.. ولأى عمل من أعمال هذه الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوقيفات وكل هاتيك المناقب والصفات؟

لو اشتغل بالتجارة طوي حبسه كما اشتغل بها فترة من الزمن، لكان تاجراً أميناً ناجحاً موثقاً به في سوق التجار والشراة.. ولكن التجارة كانت تشغل بعض صفاته، ثم تظل صفاته العليا معطلة لا حاجة إليها في هذا العمل مهما يتسع له المجال.

ولو اشتغل زعيماً بين قومه لصلح للزعامة، ولكن الزعامة لا تستوي كل ما فيه من قدرة واستعداد

فألدى أعده له زمانه وأعدته له فطرته هو الرسالة العالمية لا سواه، وما من أحد قد أعد في هذه الدنيا لرسالة دينية إن لم يكن محمد قد أعد لها أكمل إعداد..

بشائر الرسالة:

والمؤرخون يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء مشائر الرسالة الحمدية . يسردون ما أكده الرواة منها وما لم يؤكده، وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه، وما أيده الحوادث أو ناقصته، وما وفقته العلوم الحديثة أو عارضته، ويتفقون في الرأي والهوى بين تفسير الإيمان وتفسير العيان، وتفسير المعرفة وتفسير الجهالة، فهل يستطيعون أن يحتلوا لحظة واحدة في آثار تلك البشائر التي سبقت الميلاد، أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الإسلام.

لا موضع هذا لاختلاف..

فما من إشارة من تلك البشائر كان لها أثر في قباع أحد بالرسالة يوم صدع النبي بالرسالة، أو كان ثبوت الإسلام متوقفاً عليها.

لأن الذين شهدوا لعلامات المزعومة يوم الميلاد، لم يعرفوا يومئذ مغراها ومؤدها، ولا عرفوا أنها علامة على شيء، أو على رساله ستأتي بعد أربعين سنة.

ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة، لم يشهدوا بشارة واحدة منها، ولم يحنجوا إلى شهودها ليؤمنوا بمصدق ما سمعوه واحتاجوا إليه.

وقد ولد مع النبي عليه السلام أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها، فإذا جاز للمصدق أن ينسبها إلى مولده، جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره، ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين إلا بعد عشرات السنين. يوم تئى الدعوة بالآيات والبراهين عليه من شهادة الشاهدين وإنكار المنكرين

أما العلاقة التي لا تناس فيها ولا سبيل إلى إنكارها، فهي علامة الكون وعلامة الدريج.

قالت حوادث الكون لقد كانت الدنيا في حاجة إلى رسالة..

وقالت حقائق الدريج لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة.

ولا كلمة لقائل بعد علامه الكون وعلامة التاريخ.

عبقرية الداعي



اتفقت أحوال العالم إذن على انتظار رسالة..
واتفقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة..
وكان من الممكن أن تتفق أحوال العالم وأحوال محمد، ولا تتفق معها
الوسائل التي تؤدي بها رسالته على أحسن الوجوه.
كان من الممكن أن ينتظر العالم الرسول، ثم لا يظهر الرسول.
وكان من الممكن أن يظهر الرسول في النيت الصالح وهي لمينة الصالحة،
ثم لا تنهياً له الصفات التي يتم بها أداء الرسالة.
ولكن الذي تفق في رسالة محمد قد كان أعجب أعاجيب الاتفاق، وكان
المعجزة التي تفوق المعجزات؛ لأنها مع صحابها، وبعد أجزائها، وتوافق تلك
الأجزاء جميعها، مما يقله العقل قبولاً سائفاً بغير عنت ولا استكراه..
فكان محمد مستكماً للصفات التي لا غنى عنها في إيجاج كل رسالة
عظيمة من رسالات التاريخ.
كانت له فصاحة اللسان واللغة..
وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة..
وكانت له قوة الإيمان بدعوته وغيخته البالغة على حاجها
وهذه صفات الرسول غير أحوال الرسول.. ولكنها هي التي عليها المدار في
تليغ الرسالة، ولو اختلفت فيما عداها جميع لأحوال.

الفصاحة:

فالفصاحة صفة بجمع للكلام، ولهئة النطق بالكلام، ولوضوح الكلام.
فيكون الكلام مصيحا، وهئة النطق به غير فصيحة، أو يكون الكلام والنطق

به فصيح، ثم لا يجمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية في الأسماع والقلوب.

أما فصاحة محمد؛ فقد تكاملت له في كلامه، وفي هيئة نطقه بكلامه، وفي موضوع كلامه..

فكان أعرب العرب، كما قال عليه السلام «أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر».

فله من اللسان العربي أفصح هذه النشأة القرشية البدوية الخالصة.. وهذه هي فصاحة الكلام.

ولكن الرجل قد يكون عربياً قرشياً مسترضعاً في بني سعد، ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم. أو يكون صوته غير محبوب، أو يكون ترتيبه لكلماته غير مأنوس.. فيتأخر له الكلام الجميل ثم يعوزه لنطق الحميل.

أما محمد فقد كان جمال فصاحته في نطقه، كجمال فصاحته في كلامه، وخير من وصفه بذلك عائشة رضي الله عنها حيث قالت «ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد كسر دكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام من فصل، يحفظه من جلس إليه».

واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها، وقدرته على إيقاعها في أحسن مواقعها.. فهو صاحب كلام سليم في نطق سليم.

ولكن الرجل قد يكون عربياً قرشياً مسترضعاً في بني سعد، ويكون سليماً في كلامه سليماً في نطقه ثم لا يقول شيئاً يستحق أن يستمع إليه السامع في موضوعه.

فهذا أيضاً قد نثره عنه الرسول في فصاحته السائغة من شئى نواحيها.. فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات إلا وهو دليل صادق على أنه قد أوتي حقاً «جوامع الكلم» ورزق من فصاحة الموضوع كفاء ما رزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام.

الوسامة والثقة:

وكانت به مع الفصاحة صباحة ودمائة تحببانه إلى كل من رآه، وتجمعان إليه قلوب من عاشروه، وهي صفة لم يختلف فيها صديق ولا عنو ولم ينقل عن أحد من أقطاب الدنيا أنه بلغ بهذه الصفة مثل ما بلغه محمد بين الضعفاء والأقرباء على السواء.

وحسبك من حب الضعفاء إياه أن فتى مستعبداً يفقد أباه وأسرته - كريد بن حارثة - ثم يظهر له أبوه بعد طول الغيبة، فيؤثر البقاء مع محمد على النهاب مع أبيه..

وإن خادم حديجة رضى الله عنها - ويعنى به ميسرة - يقدمه ليشير سيده بالربح والتوفيق في تجارته، وهو أولى أن ينفس عليه، وأن يدعى لنفسه ما اختصه به من الفضل والتقدم.

وحسبك من حب الأقوياء إياه أنه جمع على محبته أناساً بينهم من التفاوت في المزاج والخصال ما بين أبي بكر وعمر وعثمان وخالد وأبي عبيدة، وهم جميعاً من عظماء الرجال.

ولكن ارجل قد يكون صبيحاً دماً محبوباً، ولا يكون له من ثقة الناس وانتمانهم إياه نصيب كبير، لأن الرجل المحبوب غير الرجل الموثوق به، وإذا اتفقت الخصلتان حياً فمن الجائز أن تفترقا حياً آخر، لانهما في عنصر الحصال لا متلازمان.

أما محمد فقد كان جامعاً للمحة والثقة كأفضل ما تجمعان، وكان مشهوراً بصدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحيائه، وشهد له بالصدق والأمانة أعداؤه ومخالفوه، كما شهد بهما أحباؤه وموافقوه، وامتلا هو من العلم بمنزلته من ثقة القوم، فأحب أن يستعين بها على هدايتهم وترعيبتهم في دعوته فكان يسألهم: «أرايتم لو أخبرتكم أن حياً بسفع هذا الجيل أكنتم تصدقوني؟».

فيقولون «نعم، أنت عدداً غير منهم».. إلا أن الإنيمان ينفر مما يصدمه في مآلوفاته وموروثاته، ولو صدقه وقام لديه ألف برهان عليه. فلم يكن ما بالقوم أنهم لا يصدقون محمداً ولا يعلمون فيه الشرف والأمانة، وإنما كان بهم أسهم

يسفرون من التصديق كما ينفر المرء من خبر صادق يسوع فيمن يحب أو فيما يحب، وهو مفتوح العيين باطر إلى صدق ما ينقى إليه

الإيمان والغيرة:

ومن المحقق أن هذه امواقف على كثرتها، وهذه لشعائل على مدرتها، لا تزال تتوقف على صفة أخرى يحتاج إليها الداعي أشد من احتياجه إلى الفصاحة والصباحة.. وهي إيمانه بدعوته وعيرته على نجاحها. فقد نجح داعين كثيرون تعوزهم طلاقة اللسان وطلاقة القسمة، ولم ينجح قط داع كبير يعوزة الإيمان بصواب ما يدعو إليه والغيرة عليه..

وقد قضى محمد عليه السلام شيبابه وهو يؤمن بفساد الرمان وضلال الأوثان . وجوره أناس أقل منه بطلاً في النفس ولطفاً في الحس وتفوراً من الرجس، امتوا بمثل ما آمن به من فساد عصره وضلال أهله، ومن حاجتهم إلى عبادة غير عبادة الأصنام، وأداب غير آدابهم في تلك الأيام فإذا جاورهم في صديق وعيه، وسداد سعيه فقد وافق المعهود فيه، الموروث من جده وأبيه.

ولك آمن برسائلته هو، ودعوة ربه إياه إلى القيام بأداء تلك الرسالة، لم يهجم على هذا الإيمان هجوم ساعة ولا هجوم يوم، ولم ينعج الأمر نعج من يخدع نفسه قبل أن يحدع غيره، ولكنه تردد حتى استوثق، وجزع حتى اطمأن. وخطر له في فترة من الوحي أن الله قلاه وأعرض عنه، ولم تأثر له في دعوة الناس إلى الله، ثم تلقى الطمأنينة من وحي ربه ومن وحي قلبه ومن وحي صحبه. فصدع بما أمر ورضى ضميره بما أوتى من الهداية على النص الذي رضي به ضمائر الأنبياء وأصحاب الفطرة الدينية، مع ما بينه وبينهم من فارق في الرتبة والأهبة، وما بين زمانهم وزمانه من فارق في الحاجة إلى الإصلاح.

فما من عجب إذن أن يكون محمد صاحب دعوة..

وما من عجب أن تتمه دعوته حيث اتجهت، وأن تلعب من وجهتها العاية التي بلغت، وإنما العجب ممن يعفلون عن هذه الحقيقة، أو يعدقون عنها لهوى في

الأفئدة، فيشبهون اليوم أولئك الجاهلين الذين أصرروا أمس على الكفر به،
وحججوا بأنهم نوره عامدين..

نجاح الدعوة:

ما من حركة كبرى فى التاريخ تتضح للناس إن لم يكن نجاح الدعوة
المحمدية مفهوماً بأسديه الواضحة المستقيمة التى لا عوج فى تأويلها، وما من
شئ غير القرض الأعوج يدهل صاحبه عن هذه الأسباب الطبيعية البينة، ثم
يخيل إليه أن الدعوة الإسلامية كانت فضولاً غير مطرب فى هذه الدنيا، وأن
نجاحها مصطنع لا سبب له غير الوعيد ولوعود، أو غير الإرهاب بالسيف
والإغراء بِلذات النعيم ومتعة الخمر والصور العين

أى إرهاب وأى سيف؟

إن الرجل حين يقتل من حوله إنما يقتلهم بالمئات والألوف.. وقد كن المئات
والألوف الذين دخلوا فى الدين الجديد ينحرون لسيوف أشركين ولا
بعرصون أحداً لسيوفهم، وكانوا يلقون عتاً ولا يصيبون أحداً، بعنت، وكانوا
يخرجون من ديارهم ليلاً بأنفسهم وأسرهم من كيد الكائدين، ونقمة
لناقمين، ولا يخرجون أحداً من داره.

فهم لم يسلّموا على جد السيف خوفاً من النسي الأعزل المفرد من قومه
العاضيين عليه، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعد الأقوياء
لمحكمين.. ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى ويصلوا
لإرهاب والوعيد، ولم يحملوه لئيداً واحداً بعدوان أو يستطيّلوا على الناس
بالسلطان.

فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم، ولم تكن كلها لا حروب
دفاع وامتناع.

أما الإغراء بِلذات النعيم ومتعة الخمر والصور العين، فلو كان هو باعثاً
للإيمان، لكان أحصى الناس أن يستجيب إلى الدعوة المحمدية، هم فسقة

المشركين وفحرتهم وأصحاب الترف وانثروة فيهم، ولكان طعة قرش هم أسبق الناس إلى استدامة الحياة واستبقاء النعمة، فإن حياة النعيم بعد الموت محبة إلى النعمين تحبيبها إلى المحرومين، بل لعبها أشهى إلى الأولين وأنى، ولعلمهم أحرص عليها وأحبى، لأن الحرمان بعد، لتلذذ والاستمرار أصعب من حرمان من لم يذق ولم يتغير عليه حال.

لم يكن أبو لهب أزهد في اللة من عمر..

ولم يكن السابقون إلى محمد أرغب في النعيم من المتخلفين عنه، ولكننا ننظر إلى السابقين وننظر إلى المتخلفين، فمرى فارقاً واحداً بينهم أظهر من كل فارق، ذلك هو الفارق بين الأخيار والأشرار، وبين الرحماء المنصفين والظلمة المتصلفين، وبين من يعقلون ويصفون إلى القول الحق، ومن يستكبرون ولا يصنعون إلى قول.

ذلك هو الفارق الواضح بين من سبقوا ومن تحقوا، وليس هو الفارق بين طالب لذة وراهد فيها، أو بين مخدوع في النعيم وغير مخدوع.

وبعد لا نستبين هذه الحقيقة من مثال واحد كما يستبينها من مثل عمر رضي الله عنه في إسلامه.. فقصة في ذلك نموذج للتلبية الدعوة المحمدية، يفي كل كلام يقال عن الوعيد والإغراء وأثرهما في إقناع الأقوياء أو الضعفاء. قل ابن إسحاق «.. خرج عمر يوم موشجاً بسيفه، يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه. قد اجتمعوا في بيت عند الصف وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق، وعلي بن أبي طالب، في رجال من المسلمين رضي الله عنهم، ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة. فلقبه بعمر بن عبد الله فقال له «من تريد يا عمر؟».

فقال «أريد محمداً هذا الصابي الذي فرق أمر قرش، وسفه أجلامها، وعاب دينها، وسب آلهها، فافقتله».

فقال نعيم «و لله لقد غرتك نفسك يا عمر!.. أنرى بني عبد مناف تاركيك

تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً؟ . أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟».

قال «وأي أهل بيتي؟»..

قال. «ختك وابن عمك سعيد بن عمرو» وأختك فاصمه بنت الخطاب.. فقد والله أسلم وتابعا محمداً على دسه، فعليك بهما»

قال «فرجع عمر عامداً إلى أخته وختته، وعندهما خباب في مخرج لهم أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دعا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فما دخل قال «ما هذه الهينة التي سمعت؟»..

قالا له «ما سمعت شيئاً!..»..

قال «بلى والله!.. لقد أحبرت أبكما تابعتما محمداً على ديسه».. ويطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فصر بها عسجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته. «نعم.. قد أسلمنا وأما بالله ورسوله فاصبع ما بدا لك» فلما رأى عمر ما بأخته من الدم، فدم على ما صبح فارعوى، وقال لأخته «أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون انفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد» وكان عمر كائناً، فلما قال ذلك، قالت له أخته «إيا بحشاك عليها».

قال «لا تخافى» وحلف لها بالهتة ليردنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه، فقالت له «يا أحمى!.. إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسه إلا الصاهر» فقام عمر فاعتسل، فأعطته الصحيفة وفيها «سورة طه» فقرأها فلما قرأ منها صدرها قال «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!» فما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له «يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد حصك بدعوة نبيه، فأبى سمعته وهو يقول. «اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب.. قاله الله يا عمرا»

فقال له عند ذلك عمر «فدأنى يا خباب على محمد حتى أبى فأسلم»، فقال له خباب. «هو في بيت عند الصفا مع فيه نفر من أصحابه» فأخذ عمر سيفه

فتوشحه ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فبسط من خيل الباب فراه متوشحاً بسيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فرع، فقال: «يا رسول الله! هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف»

فقل حمرة من عبد المطلب «بائن له.. فإن كن جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيف».

فقال رسول الله ﷺ: «انظروا! فأتى الرجل ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجره أو بمجمع رداءه، ثم جذه جذة شديدة وقال: «ما جاء بك يا ابن الخطاب؟» فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة!».

فقال عمر: «يا رسول الله!.. جئتك لأمن بالله ورسوله فيما جاء من عند الله» قال: «فكبر رسول الله ﷺ نكيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم»، فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمرة، وعرفوا أنها سيمضون رسول الله، وينتصفون بهما من عدوهم..»

هذه قصة إسلام عمر بن الخطاب، وهذا موضع ما فيها من الوعد والإغراء. خرج بالسيف ليقتل محمداً ولم يخرج عليه أحد من المسلمين بسيف، وهراً صدرأ من «سورة طه» ليس فيه ذكر للخمر والنعيم وهو ﴿طه﴾ ما أمرنا عليك القرآن لتشتقى ﴿٧﴾ إلا تذكرة لمن يخشى ﴿٢﴾ تزيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿طه ١-٧﴾.

فلا حين إثر، ولا طمع في إسلام عمر بن الخطاب، بل رحمة وإنابة واعتذار

ولم يكن هي إسلام الفقراء الذين هم أقل من عمر باصراً، وأضعف منه
بأساً حين ولا طمع، لأنهم تعرضوا بإسلامهم للسيف ولم يخضعوا للسيف حين
أسلموا لله ورسوله، وما كفر، الذين كهروا لزهد ولا شجاعة، فيقال إن الذين
سبقوهم إلى الإسلام قد فعلوا ذلك لشغف بلذات الجبة، وجبن عن مواجهة
القوة.. ولكنهم اختلفوا حيث تطلب طهارة السيرة وصلاح الأمور، فمن كان
أقرب إلى هذه الطلبة من عبي أو فقير، ومن سيد أو مستعبد فقد أسلم، ومن
كان به زيغ عنها فقد أبى.. وهذا هو الفاصل القائم بين الفريقين قبل أن يتجرد
للإسلام سيف ينزود عنه، وبعد أن تحرر له سيف تهابه السخوف، وما يقسم
الطائعتين أحد فيضع أباً بكر وعمر وعثمان في جانب اللذة والخوف، ويضع
الطاعة من قريش، في جانب العصمة والشجاعة إلا أن يكون به هوى كهوى
الكفار من قريش، في الإصرار والإنكار.

إنما سجت دعوة الإسلام لأنها دعوة طلبتها الدنيا ومهدت لها الحوادث،
وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه وموافقاً أحواله وصغاته
فلا حاجة بها إلى حارقة ينكرها العقل، أو إلى علة عوج، يلتوى بها ذرو
الاهواء، فهي أوضح شيء، مهما لمن أحب أن يفهم وهي أقوم شيء، سبيلاً لمن
استقيم..

عبقريه محمد العسكريه



حروب دفاعيه

قلنا فى الفصل السابق ان الإسلام لم ييجع لأنه دين قتال كما يردد أعداؤه المغرضون، ولكنه نصح؛ لأنه دعوة لازمة يقوم بها داع موفق، وليس بين أسباب نجاحه سبب واحد يصعب فهمه على هذا الاعتبار.

ونريد فى هذا الفصل أن نقول إن محمداً كان على اجتنابه العدوان بحس من فنون الحرب ما لم يكن يحسنه المعتدون عليه، وإنه لم يجتنب الهجوم والمبادأة بالقتال لعجز أو خوف مما يجهله ولا يجيده. ولكنه اجتنبه؛ لأنه نظر إلى الحرب نظرتة إلى ضرورة بغيصه يلجأ إليها ولا حيلة له فى اجتنابها حيث تبسرت له الحيلة الناحية.

وقبل ذلك ينبغي أن نستحضر فى الذهن بعض الحقائق التى تظهر لى الاختلاف بين الدين الإسلامى والأديان الأخرى فى مسألة القتال، لئلا نلث أن للإسلام شأنًا فى اجتناب القوة كشأن كل دين، وأنه ما كان لينتصر بالقوة لو لم يكن إلى جانب ذلك صالحاً للانتصار، وإن الأديان الأخرى ما كانت لتحجم عن عمل اقدم عليه النبى لو كانت دعوتها كدعوتة، وكانت أسبابها كآسيابه.

ما الحقيقة الأولى. أن مطعن القائلين بأن الإسلام دين قتال إنما يصدق - لو صدق - فى بداية عهد الإسلام كما أسلفنا يوم دان بهذا الدين كثير من العرب المشركين، ولولاهم لما كان له جند ولا حمل فى سبيله سلاح.

لكن الواقع أن الإسلام فى بداية عهده كان هو الممتدى عليه، ولم يكن من قبله اعتداء على أحد.. وطل كذلك حتى بعد نبيه الدعوة الحمديّة، واجتماع القول حول النبى عليه السلام، فإنهم كانوا يقاتلون من قاتلهم ولا يزيبون على

ذلك ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩]

وكانوا يحاربون من لا يضمن عهده ولا يبقى شره بالحلف والمسالمة ﴿وَأِنْ
كُنْتُمْ أَتِمَّانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنْتُمْ فِي دِينِهِمْ فَقاتِلُوا أئِمَّةَ الْكُفْرِ بِهِمْ لَا إِيمَانَ
لَهُمْ عَنْهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

وقد صبر المسلمون على المشركين حتى أمروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتلون
المسلمين كافة، فلم يكن لهم قط عدوان ولا إكراه

وحروب النبي عليه السلام كما أسلفنا كانت كلها حروب دفاع ولم تكن منها
حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد لإيقان من مكث العهد،
والإصرار على القتل، ونسبوى في ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود
أو مع الروم.. فسفى غزوة تبوك عاد الجيش الإسلامى أدراجه بعد أن أيقن
بأنصراف الروم عن القتال فى تلك السنة، وكان قد سرى إلى المي نياً أنهم
يعبثون جيوشهم على حدود البلاد العربية، فلما عدلوا عدل الجيش الإسلامى
عن الغزوة على قرط ما تكلف من الجهد والنفقة فى تجهيزه وسفره.

والحقيقة الذببة أن الإسلام إنما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن
أن تحارب بالبرهان والإقناع.

ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف «سلطة»، تقف فى طريقه وتحول بينه
وبين أسماح المستعدين للإصغاء إليه.

لأن السلطة تزال بالسلطة، ولا غنى عى إخضاعها عن لقوة..

ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية، وإنما
كنوا أصحاب مناهج موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة فى الأبناء بعد الأباء،
وفى عهد الأعقاب بعد الأسلاف، وكل حججهم التى يذوبون بها عن تلك التقاليد أنهم
وحيروا أبائهم عنها، وأن روالها يريد ما لهم من سطوة الحكم والجاه.

وقصد النبي بالدعوة عظماء الأمم وسوكها ومراءها؛ لأنهم أصحاب السلطة التي رأى العفاند الجديدة، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هي التي كانت تحول دون الدعوة المحمدية، ولست أفكر معكرب ولا مذاهب حكماء لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والموك كان يمنع لعوائق التي تصد الدعوة الإسلامية، فبممتنع القتال.

ومن التجارب التي دل عليها التاريخ أأحدث كما دل عليها التاريخ أقدم أن السلطة لا غنى عنها لإنجاز وعود المصلحين ودعاة الانقلاب.. ومن تلك التجارب تجربة فرنسا في القرن الماضي، وتجربة روسيا في القرن الحاضر، وتجربة مصطفى كمال في تركيا، وتحارب سائر الدعاة من أمثاله في سائر الدنيا.

فمعاربة السلطة بالقوة غير معارية الفكرة بالقوة.. ولابد من التمييز بين العملين. لأبهما جد مختلفين.

والحقيقة لثالثة أن الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط إلا في الأحوال التي أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها..

فالدولة التي يثور عليها من يخالفها بين ظهر نبيها، ماذا تصنع إن لم تحتكم إلى السلاح؟ وهذا ما قصى به القرآن الكريم حيث جاء فيه ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتَّةٌ وَيَكُونَ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة ١٩٣] و لئولة التي حمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها، بهذا تفرض الخلاف بينهم إن لم تفضله بقوة السلطان؟

وهذا ما قصى به القرآن الكريم أيضاً حيث جاء فيه ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَمُوتَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات ٩].

وفى كلتا الحالتين يكون اسلح آخر الحبل، وتكون نهاية انظم والاعتداء بهانة الاعتماد على السلاح.. ثم بأتى الصلح والتوفيق، أو بأتى التفاهم بالرضا والاختيار.

والحقيقة اربعة أن الأدين الكتابية بينها هروق موضعية لأبد من ملاحظتها عند البحث فى هذا الموضوع..

فاليهودية أو الإسرائيلية كانت كما يدى عليها اسمها أشبه بالعصبية المحصورة فى أناء إسرائيل منها بالدعوة العامة لجصيع الناس، فكان أباقهم يكرهون أن يشاركهم غيرهم فيها، كما يكره أصحاب السب الواحد أن يشاركهم غيرهم فيه، وكنوا من أجل هذا لا يحركون ألسنتهم -فضلاً عن امبشاق الحسام- لنعميم الدين اليهودى وإدخال الأمم الأجنبية فيه، ولا وحه إذن للمقارنة بين اليهودية والإسلام فى هذا الاعتبار..

أما المسيحية فهى قد عبت «أولاً» بالأداب والأخلاق، ولم تكن مثل هذه العناية بالمعاملات ونظم الحكومة.

وقد ظهرت «ثانياً» فى بلاد للمعاملات واسطم الحكومة فيها قوانين تحميها كما يحميها الكهان المعززون بالسلطان فهى قد عدلت عن فرض المعاملات والدساتير بهذه الضرورة، لا لأن للمعاملات والدساتير ليست من شأن الدين.

وقد ظهرت «ثالثاً» فى وطن تحكمه دولة أجنبية ذات حول وطول، وليس للوطن لذى ظهرت فيه طاقة بمصادمة تلك الدولة فى ميدان القتال.

أما الإسلام فقد ظهر فى وطن لا سيطرة للأحنى عليه، وكان ظهوره لإصلاح المعيشة وبقويم المعاملات وبقريز الأمن ولساطم.. وإلا فلا معنى لظهوره بين العرب ثم فيما وراء الحدود العربية.

فإذا احتفت نشأته ونشأة المسيحية، فذلك اختلاف موضعى طبيعى لا مناص منه ولا اختبار لأحد من الخلق فيه.

نية ذلك أن المسيحية صنعت صنع الإسلام حين قامت بين أهلها الدول

والجيوش، وحين استنقلت شعوبها عن الأحزاب المتغلبين، وأريت حروب المذاهب فيما بين أسانها على حروب صدر الإسلام محتتمعات،

والحقيقة الخامسة: أن الإسلام شرع الجهاد، وأن النبي عليه السلام قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

وجاء في القرآن الكريم: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحِرْضُ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسْ أَلْبَاسٍ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَكَفِيلًا﴾ (النساء ٨٤).

وحدث فعلاً أن المسلمين فتحوا بلاداً غير بلاد العرب، ولم يفتحوها ولم يكن يئس لهم فتحها بغير السلاح.

إلا أن هذه الفتوح تأخرت هي الزمن، ولم يعم شيء منها قبل استقرار الدولة للإسلام، فلا يمكن أن يقال إنها كانت هي وسيلة الإسلام للظهور، وقد ظهر الإسلام قبلها وتمكن في أرضه، واجتمعت له حنود تؤمن به وتقدم على الموت في سبيله.

ثم إن هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة إن لم تفرضها الدعوة إلى دينها..

فلو قدرت أن الخليفة المسلم لم يكن صاحب دين يتشره ويدعو إليه، لوجب في ذلك العهد أن يأمن على ملاده من الفوضى التي شاعت في أرض فارس وفي أرض الروم - ووجب أن يكف الشر الذي يوشك أن ينقض عليه من كليهما، وأن يمنع عوى الفساد أن تسرى منهما إلى حماه.

هذا إلى أن الإسلام قد أجاز للأمم أن تبقى على دينها مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة، وهو أهون ما يطلبه غالب من مغلوب.

والحقيقة السادسة أن المقابلة بين ما كانت عليه شعوب العالم يومئذ قبل

إسلامها وبعد إسلامها تدل على أن جانب الإسلام هو جانب الإقناع لمن أراد الإقناع..

فقد استقر السلام بين تلك الشعوب ولم يكن له قرار، وانتضمت بينها العلاقات ولم يكن لها نظم، واطمأن الناس على أرواحهم وأرزاقهم وأعرضهم، وكانت جميعها مباحة لكل غاصب من نوى الأمر والجاه..

فإذا قيل إن المدعويين إلى الإسلام لم يقتنعوا بفضلهم سابقين، فلا ينفي هذا القول أنهم اقتنعوا به متأخرين.. وأن الإسلام مقبوع لمن بخنار ويحسن الاختيار، إلى جانب قدرته على إكراه من يركب رأسه ويقف في طريق الإصلاح..

ومن نظر إلى الإقناع العقلي، تساوى لديه من يستميلك إلى العقيدة بتوزيع الدواء والطعام، أو بتربية الأطفال عليها وهم لا يعقلون، ومن يستميلك إليها بالخوف من الحاكم، على فرض أن خوف الحاكم كان بريئة من ذرئع نشر الإسلام.

قال شاهد الذي تصممه وتكسوه ليقول قوال في إحدى القضايا، كالشاهد الذي ينظر إلى السوط في يديك فيقول ذلك القول، كلاهما لا يأخذ بإدع الدليل ولا ينفذ الحجة، ولا يدفع عن عقيدة دفع العرف البصير..

وصفوة ما تقدم أن الإسلام لم يوجب القتال، لا حيث أوجبه جميع اشترائع وسرعته جميع الحقوق، وأن الذين خاطبهم بالسيف قد خاضعهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك، إلا أن يحال بينها وبين انتضاته، أو بسطل عدها الحاجة إلى دعوة الغرباء إلى أديانها. وإن الإسلام عقيدة ونظام، وهو من حيث النظام شأنه كشأن كل نظام في أحد الدس بالطاعة ومعهم أن يحرحوا عليه..

القائد البصير

لم يكن الإسلام إنساناً دس قتال، ولم يكن إنساناً رجلًا مقابلًا يطب الحرب للحرب، أو يطلبها وله مندرجة عنها، ولكنه مع هذا كان نعم القائد البصير إذا وجبت الحرب وسعته، لبها المصلحة اللازمة، بعزم من فتونها بالإلهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمرانة، ويصيب في اختيار وقته وتسيير جيشه وترسيم خطه

إصابة لتوفيق وصابة الحساب وإصابة الاستشارة، وقد يكون الأخذ بمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة تقترب من الابتكار والإنشاء لأن القيادة الحسنة هي قيادة التي تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع، وهي التي تحدد كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام.

وقد كانت عروة بدر هي التحربة الأولى للنبي عليه السلام في إدارة المعارك الكبيرة، فلم يخف أن يستمع فيها إلى مشورة الشباب بن المنذر حين اقترح عليه الانتقال إلى غير المكان الذي نزل فيه، ثم وعى من تحربة واحدة ما قل أن يعيه القادة المنقطعون للحرب من تحرب شتى، فلو تتبع حروبه عليه السلام ناهد عسكري من ساطين من الحرب في العصر الحديث ليقترح وراء خطته مقترحاً أو ينه إلى خطأ لأعياء التعديل.

ونختار أبرع لقادة المحدثين وهو نابليون بونابرت على أسلوب حرب الحركة الذي كن هو الأسلوب الغالب في العصور الماضية، والذي ظهر في الحرب العالمية الحاضرة^(١) أنه لا يزال الخطوه الأخيرة في جميع الحروب، على الرغم من عصون والسود، لأن اختيار نابليون بونابرت يبين لنا السبق في خطط النبي العسكرية، بالمضاهاة بينها وبين خطط هذا القائد العظيم..

١- فبالبون كان يوجه همه الأول إلى القضاء على قوة العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع، فلم يكن يعنيه ضرب المدن ولا اقتحام المواقع، وإنما كان عيابه الكبرى منصرفة إلى مبادرة الجيش الذي يعتمد عليه العدو بهجمه سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان، وهو على يقين أن الفوز في هذه الهجمة يعنيه عن المحاولات التي تلجأ إليها حلة القواد.

وعنده أنه يستفيد بخصته تلك ثلاثة أمور. أن يختار الموقع الملائم له، وأن يختار، كفرصة، وأن يعاجل العدو قبل تمام استعداده.

وكان أسبى عليه السلام سبقاً إلى تلك الخطط في جميع تفصيلاتها فكان كما قدمنا لا يبدأ أحداً بالعدوان، ولكنه إذا علم بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه جهد ما تواتيه الأحوال، بل ربما وصل إليه الخبر

(١) الحرب العالمية الثامنة.

كما حدث في غزوة ببوك والناس محذرون، والقطر ملتهب، والشدة بالغة، فلا يثبت ذلك عن الحطة التي تعودها، ولا يكف عن التأنب اسريع وعن حض اسلمين على جمع الأموال وجمع الرجال، ولا يبالى ما أرحف به المنافقون الذين توقعوا الهزيمة للجيش المحمدي فلم يحدث ما توقعوه.

وكان عليه السلام يعمد إلى القوة العسكرية حيث أصابها، فيقضى على عزائم أعدائه بالفضاء عليها، ولا يصيب الوقت في انتظار ما يخاره أولئك الأعداء، وإضعاف أنصاره بتركه رماح لحركة في أيدي الهاشميين، إلا أن يكون الهجوم وبلاً على المتقدمين عليه، كما حدث في غزوة الخندق.

٢- وكان نابليون يقول إن نسبة القوة المعنوية إلى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة إلى واحد

والنبي عليه السلام كان عظيم الاعتماد على هذه القوة المعنوية التي هي في الحقيقة قوة الإيمان. وربما بلغت نسبة هذه القوة إلى الكثرة العددية كنسبة خمسة إلى واحد في بعض المعارك، مع رجحان الفئة الكثيرة في السلاح والركاب إلى جانب رجحانهم في عدد الجنود، ومعجزة الإيمان هذا أعظم جداً من كبر مزية بلغها نابليون ببعض ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة. فالتقى عليه السلام كان يحارب عرباً يعرب، وقرشيين بقرشيين، ومقاتل من السلالة العربية بعبث من صميم تلك السلالة، فلا يقال هنا إن الفصل لقوم على قوم في المزايا الجسدية أو المزايا النفسية، كما يمكن أن يقال هذا في جيوش نابليون، وكل فضل هنا فهو فصل العقيدة والإنسان

٢ وقد كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يفعل لقضاء على القوة المالية أو التجارية التي يتناولها قنذاره. فكان يحارب الإنجليز بمنع تجارتهم وسفنتهم أن تصل إلى القارة الأوروبية، وتحويل المعاملات عن طريق إنجلترا إلى طريق فرنسا..

وهكذا كان النبي عليه السلام يحارب قریشاً في مجربها، ويصعد السرايا في أثر القواصل كلما سمع بقافلة منها.

وأنكر بعض المتعصبين من كتّاب أوروبا هذه السرايا وسموها «قصفاً

للطريق» وهي هي سنة المصادرة بعينها التي أقرها «القانون الدولي»
وعمل بها قادة الجيوش في جميع العصور، ورأينا تطبيقها في الحرب
الحاضرة والحرب الماضية، رشيداً تارة وغالياً في الحمق والشطط تارة
أخرى.

٤- وقد أسلفنا أن بابليون كان بوجه همه إلى الجيش، ولا يقتحم المنس
أو يشغل باله بمحاصرتها لغير ضرورة عاجلة

ونرجع إلى غزوات النبي عليه السلام فلا يرى أنه حاصر محلة، إلا أن
يكون الحصار هو الوسيلة الوحيدة العاجلة لمبادرة القوة التي عسى أن
تخرج منها قبل استبعادها، أو قبل نجاحها في الغر والوقعة، كما حدث
في حصار بني قريظة وبني قينقاع، فكان الحصار هنا كمبادرة الجيش
بالهجوم في الميدان المختار بغير كبير اختلاف.

٥- وكان بابليون معتداً برأيه في الفنون العسكرية ولاسيما الحطط الحربية،
ولكنه كان مع هذا الاعتداد الشديد لا يستغنى عن مشاورة صحبه في
مجلس الحرب الأعلى، قبل ابتداء الرحف أو قدس العزم على القتال.

ومحمد عليه السلام كان على رجاحة رأيه يستشير صحبه في خطط القتال
وحيل الدواع ويقبض مشورتهم أحسن قبول، ومن ذلك ما صنعه ببدر -
والمعنا إليه أنفا- حين أشار عليه الحباب بن المنذر بالانفصال إلى مكان غير
الذي نزلوا فيه أول الأمر، ثم بتعوير الأنار وبقاء حوض للشرب لا يصل
إليه الأعداء، وقيل في روايات كثيرة إنه عمل بمشورة سلمان الفارسي في
حفرة الحندق، عند المنفذ الذي حيف أن يهجم منه المشركون على المدينة،
فحفر الحندق وعمل الخنق بيديه لكرمتين في حفره.

وقبول أسى مشورة سلمان عمل من أعمال القيادة الرشيدة، وسنة من
سين القواد الكبار، غير أننا نعتقد أنه عليه السلام كان خليقاً أن يشير
بمفر لخنق لو لم يكن سلمان الفارسي بين أهل المدينة في إبان الهجمة
عليها، لأنه عليه السلام كان شديد الالتفات إلى سد الثغور وحمايه الظهور
في جميع رقعاته، وفي رقعة أحد جعل الجبل إلى ظهره، وأقام على الشعب

الذي يخشى منه النفاذ والالتفاف خمسين رامياً مشدداً عليهم في التزام موقفهم، قائلاً لهم: «احموا ظهورنا فإبنا نحاف أن يجيئوا من ورائنا، والزموا مكابكم لا يبرحوا منه، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى يدخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعيونا ولا تدفعوا عنا، وإنما عليكم أن ترشقوا حبلهم بلبل فإن الخيل لا تقدم على النبل».

والذي يفعل عدا في شعب جبل، لا يقو به أن يفعل مثله في ثغرة مدنية، ولكن المشاورة هنا هي المقصود ماضاهاة بين ما سبق إليه النبي وما تبع فيه نابليون فهذه حصلة معهودة في كبار القواد لا تقدر فيما عرفوا به من قدرة على وضع الخطط وابتكار الأساليب.

٦ ولم يعرف عن قائد حديث أنه كان يعنى بالاستطلاع والاستدلال عناية نابليون.

وكانت فراسة النبي في ذلك مضرب الأمثال، فلما رأى أصحابه يضربون العبدن المستقيين من ماء بدر، لأنهما يذكرا فريشاً ولا يذكرا أباً سفيان، علم بقطب الصادقة أنهما يقولان الحق ولا يقصدان المراء وسأل عن عدد القوم فلما لم يعرفا العدد سأل عن عدد الجُرُ لتي ينحرونها كل يوم، فعرف قوة الجيش بمعرفته مقدار الطعام الذي يحتاج إليه. وكان صلوات الله عليه إنما يعنى في استطلاع أخبار كل مكان على أهله وأهرب الناس إلى العلم بفحاجه وبرويه، ويعقد ما يسمى اليوم «مجلس العرب» قبل أن يبدأ بالقتال، فيسمع من كل فيما هو خبير به من فنون حرب أو دلائل استطلاع.

٧- واشتهر عن نابليون أنه كان شديد الحذر من الأسنة والأقلام، وكان يقول إنه يخشى من أربعة أقلام ما ليس يخشاه من عشرة آلاف مسام.

والنبي عليه السلام كان أعرف الناس بفعل الدعوة في كسب المعارك وبغلب المقاصد، فكان يبلغه عن بعض أفراد أنهم يخفرون، لئمة التي عاهدوا عليها، ويشهرون به وبالإسلام، أو يثيرون العشائر لقتله، ويقذعون في هجوه وهجو دينه، فينفذ إليهم من يحاربهم في حصونهم أو يتكفل له بالحلص منهم. .

وعاب هذا بعض المقرئين من الكتاب الأوربيين، وشبهوه بما عيب على نابليون من احتطاف، لندوق دنجان وما قيل عن محاولته أن يختطف الشاعر الإنجليزي كولردج الذي كان يحوص في دمه ويستهوئ الأسماع بسحر حديثه..

إلا أن الفارق عظيم بين الحالتين: لأن حروب الإسلام إنما هي حروب دعوة أو حروب عقيدة، وإنما هي في مصدرها وغايتها كفاح بين لتوحيد والشرك أو بين الألوهية والوثنية وليس وقوف الجيش أمام الجيش إلا سبباً من سبل الصراع في هذا الميدان.

فليس في حالة سلم مع النسي إثم من يحاربه في صميم الدعوة الدينية، ويقصده بالضعف في أبواب رسالته الإسلامية، وإن لم ينفر الناس لقنائه ولم يحرضهم على النكث بعهد، وإنما هو مقاتل في الميدان الأصيل ينتظر من أعدائه ما ينتظره المقاتل من المقاتلين، ولا سيما إذا كانت الحرب قائمة دائمة لا تنقطع فترة إلا ريثما تعود.

أما نابليون فالحرب بينه وبين أعدائه حرب جيوش وسلاح، فلا يحور له أن يقتل أحداً لا يحمل السلاح في وجهه، أو لا يدينه بقانون بما يستوجب إزهاق حياته، وما مهز نابليون لنشر دين أو تفنيد دين، ولا كان للرسول الإسلامي من غرض لو جار له أن يقتل المسلمة ممن يحاربونه في دينه وإن لم يشهروا السيف في وجهه، فإن الضرب بالسيف لأهون من المقتل الذي بضربون فيه.

تلك مقابلة مجيلة بين الخطط والاعدادات التي سبق إليها محمد وجرى عليها نابليون بعد مئات السنين، ومن الواجب أن نحكم على قيمة اقيادة بقيمة الفكرة أو الخططة فمن أن نحكم عليها بضخامة الجيوش وأروع السلاح

لم يتخذ محمد الحرب صناعة، ولا عمد إليها -كما أسلفنا- إلا لدفع عارة وانتقاء عداوة، فاذا كان مع هذا يتفنن منها ما يتولاه مدفوعاً إليه، فله فضل سبق على حيار الحروب الحديثة لدى تعلمها وعاش لها ولم ينقطع عنها منذ

ترعرع إلى أن سكر في مفاه، ولم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغ لقائد الأمل
بين رمال الصحراء.

ولقد كانت خبرة النبي ببعوث الاستطلاع كخبرته ببعوث القتال، فكانت
طريقته في اختيار المكان والغرض، أو في اختيار الفئدة وتزويده بالوصايا
والألتاع مثلاً يحتذى في جميع العصور، ولا سيما العصر الحديث الذي كثرت
فيه ذرائع التخبيطة والمراوغة وذرائع الكشف والدعوة، فكثرت فيه من ثم-
حاجة المقاتلين إلى استقصاء أحوال الأعداء.

الأوامر المختومة:

ففي الحروب الحديثة يتردد ذكر الأوامر المختومة التي تصدر إلى قواد
السرايا والسفن ليعتصروها عند مدينة مطلومة، أو بعد مسيرة ساعات، أو في
عرض البحر على درجة معينة من درجات الطول والعرض إلى أمثال ذلك من
العلامات التي تعين بها الجهات.

ويتفق في أمثال هذه البعث أن يكون القائد وحده مطلعاً على سر البعثة،
ورجاله جميعاً يجهلون ولا يعرفون أهم خارجون في غروة أم في معاورة
استطلاع، إلى ما قبل الحركة المقصودة بساعات معدودات وهالك مصدر
الأوامر التي لا بد من صدورها للتهيؤ والتعذيب، ولا خوف من كشفها في تلك
الساعات بصعوبة الاستعداد الذي يقبلها به العدو إذا فكشف له قبل تنفيذها
بفترة وجيزة، ولا سيما إذا كانت الحركة من حركات البحار.

هذه الأوامر المختومة ليست بحدثة.

فقد عرفت في المائثرات النبوية على أتم أصولها التي تلاحظ في أمثالها،
ومن ذلك أنه عليه السلام بعث عبد الله بن جحش ومعه كتاب أمره ألا يطر فيه
حتى يسير يومين، وفحواه أن «سر حتى تأتي بطن نخلة على اسم الله وبركاته،
لا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك، وامض فيمن تنعك حتى تأتي
بطن نخلة، فترصد بها غير قریش وتعلم لنا من أخبارهم»

وهذا نموذج من الأوامر المختومة جامع لكل ما يلاحظ فيها حديثاً وقديماً
وعند بداية الدعوات على التخصيص.

فأولها كتمان الخبر ممن يحيطون بالنبي عليه السلام، فلا يبعد أن يكون
منهم من هو مدخول السدة عياً عليه وعلى أصحابه من قبل قريش، ولا يبعد أن
يكون منهم من يبوح بالخبر ولا يرب به السوء أو يدرك ما في البوح به من
الخطر المحذور، ولا يبعد أن يكون منهم الصعفاء والمحالقون، وإن الاستعانة
على قضاء الحاجات بالكتمان لسنة حكيمة من سن النبي عليه السلام في
جميع المطالب، وهي في حروب الدعوات على التخصيص أقمن بالاتناع.. ولهذا
كان إذا أراد عروة وري بغيرها على النحو الذي يتبعه قادة الحروب إلى الآن.

ومما لوحظ في كتاب النبي لعبد الله بن جحش كتمان الخبر عن أصحابه ثم
وصايته ألا يكره أحداً منهم على المسير معه بعد معرفته بوجهته، وهذا هو أهم
الملاحظات في هذا المقام.

فقد يحارب الرجل وهو مكره مهتد بالموت الذي ينقيه إذ يعر من القتال،
ولكنه لا يستطلع وهو مكره ثم يفيد استطلاعاً من أرسلوه، بل لعله يتقلب
إلى النقيض فيحرف الأخبار عمداً، أو يلقاها على غير اكتراث، أو يطلع
الأعداء على أسرار أصحابه وهم غافلون عنه.

ولهذا تعاني الدول أكبر العناء في مراقبة الجواسيس بالمراسيس، وفي
امتحان كل خبر بالمراجعة بعد المراجعة، والناقضة بعد المناقضة، حتى يطمئن
إلى صحته قبل الاعتماد عليه.

وفي الحرب الحاضرة تجربة جديدة بهذا النوع من المستطلعين أو الرواد
المتقنين..

فقد عرف أن هتلر يعتمد على أفراد من جنده يهبطون من الطائرات وراء
الصفوف، فتسللون إلى مراكز المواصلات ويعيثون بين القرى المعزولة، فيشيعون
فيها الرعب والخيرة، ويوهمون من يراهم أن الجيش المغير كله على مقربة منهم
فلا جدوى لهم من الاستعانة أو المقاومة، ويحمل معظم هؤلاء الرواد المتقدمين
أجهرة للمحاطلة يستعينون بها على الاتصال برؤسائهم من بعيد.

قبل في الإعجاب بهذه لحظة الهلترية كثير، وقيل في ابتقادها والتنبه إلى خطرها كثير.

فمن نواعي الإعجاب بها أنها أفادت في قطع المواصلات وشاعة الذعر وتضليل المدامعين، وأنها شيء جديد في شكله وإن لم يكن جديداً في ماهيته ومرماه.. ومن أسباب انتقادها أن كل فائدة فيها تتوقف على العقيدة وحسن النية. فهي تستلزم أن يكون الرائد غيوراً على عمله، متحمساً لإجباره، رقيقاً على نفسه وهو بمعزل عن رقبائه فليس أيسر له إذا هو أنفرد وأعوزته الرغبة في إنجاز عمله من أن يسأسر في أول مكان يصل إليه من بلاد الأعداء طلباً للسلامة، ولا عقاب عليه إلى نهاية القتال، ثم يفعل بما شاء من المعاذير إن وجد بعد ذلك من نحاسيه ويعاقبه، وههنا أن تجميع الأدلة عليه في أمثال هذه الفوضى بين معسكرين أو عدة معسكرات

فالخطة الهلترية فاشلة لا محالة إن لم ينفذها مريدون متعصبون غير مكرهين، ولا مشككين فيما هو موكل إليهم، وهي لهذا أخرى أن تحسب من وحي بحوان الطريق وإلهام العقائد، لا من النظام الذي يدرّب عليه كل جيش ويصلح لجميع الجنود، قولا أن النازيين قضوا قبل الحرب الحاضرة زهاء عشر سنين ينقحون في نفوس الناشئة حدود البعوض ويلهبونهم بحماسة، لعقيدة وبحقوق فيهم اللد الذي يغني عن الرقابة ساعة التنفيذ، لحبّطت الخطة كل الميول، وانقلابت على النازيين شر انقلاب.

وها هنا تتجلى حكمة النبي عليه الصلاة والسلام في اشترط لرغبة والطوعية، واجتناب القسر والإكراه..

فهذه «أولاً» بعثة منفردة لا سبيل إلى الإكراه لفعال بين رجالها إذا أريد. وهي «ثانياً» بعثة استطلاع لا يغنى فيها عمل الكاره المفسور. وأزعم ما يلزم العامل فيها بمباهمة وصدق نيته وحسن مويدته لمن أرسلوه، فإن أعوزته هذه الصفة فقد أعوزته كل شيء.

أما غرض البعثة كلها وهو الاستطلاع، فقد كن النبي عليه السلام عليمًا بمزايده، معنيًا به غاية العناية، بحسب العدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار

الحصول، في حمى من الجهر به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية في الوقت الضروري، ويحول من ثم دون الانتصار عليه .

ونحن نكتب هذه الفصول والحرب الروسية مذكراً كيف أصيب نابليون في هذا الميدان حين أُصيب في وسائل الاستطلاع ثم تذكرنا كيف تكررت هذه العطة بعينها على نوع من المشابهة بين غروة نابليون في روسيا أمس وغروة هتلر لتلك البلاد اليوم.

فمن أسباب هزيمة نابليون إهماله النصائح التي سمعها في مجلس الحرب من بعض الثقات قبل اتوغل في الحرب الروسية، لاعتقاده خطأ أن القيصر سيطلب صلحه بعد أسابيع.

ومن أسباب تلك الهزيمة أن الروس كانوا يتراجعون أمامه تحت جنح الظلام، ويحلون امدن والطرقات حتى لا يرى فيها ديراً يسأله عن مكان الجيش المتراجع، أو يلتقط من خلال أجويته ما يعينه على الاستطلاع الذي كان شديد التعويل عليه.

أما هتلر فقد أتى من قبل هذين النقصين كما أتى من قبلهما من هو أعظم منه وأولى بالتحرز ولأناة

فقد اشتهر أنه كان في مجلس الحرب على خلاف مع قواده الثقات الذين علموا من شأن الروس ما ليس له به علم

واشبهه أنه أخطأ في استطلاع أخبار القوم، إذ خيل إليه أن الشعب الروسي يتحضر لثورة، ويتربقب الإغارة عليه لنصرة المغر كئذ من كن، ولو جاءت الغارة من عنصر معاد للعنصر اسلافى، وهو عنصر اجرمان.

ومحمد عبده السلام لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون، ولكنه ثم يخطئ قط مثل هذا الخطأ في جميع غروته وكشوفه، ولعلنا نفهم -كلما درسنا رمايه النافل بالعبر والأمثلة الذهبية- أن براسته ضارب من دراسة العصر الحديث والقادة المحدثين.

وينبغي ألا تمر بما سرية عبد الله بن جحش دون أن نستوفى كل ما فيها من

الشنون العسكرية لأنها تشتمل على أكثر من جانب واحد من حواشي السيرة النبوية والتشريع الإسلامي في هذه الشؤون.

فهى سرية استطلاع كما علمت، لم تؤمر بقتال ولم يؤذن لها فيه
لكن حدث بعد فسخ لكتاب أن اثنين من رجال السرية ذهبوا يملبان بغيراً
لهما صل هأسرتهما قريش، وهما سعد بن أسى وقص وعتبة بن غرزة.

ثم نزل الركب سحلة فمرت بهم عبر قريش تحمل تحارة عليها عمرو بن
الضرمي، آخر شهر رجب وكانت قريش قد حجزت أموال أنس من المسلمين
ممنهم بعض من فى السرية، فقتلوا فى قتال أهل العير، وحاربوا فيما
يصنعون، إن تركوا العير تمضى ليلها امسعت يا حرم وهماهم تعويص ما
حجزته قريش هى هذه الفرصة السانحة، وإن قاتلوا أهلها قتلوه فى شهر
حرام لكنهم اندفعوا إلى القتال فصابوا من أصابعه ورمى أحدهم عمرو بن
الضرمي بسهم فأرداه، وأسروا رجلين

وقفل عبد الله بن جحش ومن معه إلى المدينة وقد حجروا الننى عليه
السلام الخمس من غنيمتهم، فأباه ﷺ وقال لهم ما أمرتكم بقتل فى الشهر
الحرام، وعنفهم إخوانهم لمخالفة النى، وساءت لقيام بين أهل المدينة.

وراحت قريش تثير ثائرة العرب واندس جماعة من اليهود يحضون نار
الفتنة، وينذروا أن محمداً وأصحابه قد أباحوا الدماء والأموال فى الشهر
الحرام، وقال المسلمون فى مكة، بل كان ذلك فى شعبان، ثم نزلت الآيات
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ
بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ
يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]

فقبض لسى العير والأسيرين، وطست قريش فداءهما فقال عليه السلام، لا
تعدىكماهما حتى يقدم صاحبا، وإيا محشاكم عليهما، فإن تقاتلوهما تقتل صاحبكما،

هذه قصة السرية وما وقع فيها خلافاً لأمر النى وما نجم عنها من تشريع.
هكذا نحن كتناها باصطلاح العصر الحديث فكيف بكتبتها. وكيف يفهمها؟..

هي لا خلاف حادثة طلائع أو جدثة حدود.

ترس إحدى أدلة طليعة من جندها إلى حدوده للكشف أو لحراسة، فيقع الاشتناك بينها وبين طليعة في بلاد أخرى على غير علم من الحكومتين.

فالذي يحدث في هذه الحالة أن تفطر الحكومة الأخرى إلى المسألة كأنها مسألة فردية عرضية لا تستوجب اقتال، وتكتفي بما يمال المسئولين على أيدي حكومتهم من جزء أو تأنيب، ويحسم النزاع.

هذا أو تصر الحكومة الأخرى على طلب البرصية، فمن قبلتها الحكومة المطلوبة فالنزاع منحسم، وإن لم تقبلها فلفوضة وإساقمة أو امتشاق الحسام..

ذات إذ نضر الفريقان إلى المسألة كأنها مسألة فردية عرضية، ولم يشأ أحدهم أو كلاهما أن يضعهما موضع التشريع العام لتقرير الحكم الذي يجريان عليه فيها وفي أمثالها، أو تقرير ما يعترفان به وما ينكرانه من الشرائط والأصول.

وقرير لم تكتف بالنظر إلى حادثة السرية كأنها حادثة فردية عرضية، ولم تعلن الحرب توّ لأنها تبين النية لإعلانها بعد حين. ولكنها أثارت مسألة تشريع عام في قتال الشهر الحرام، فوجب أن ينص لإسلام على هذا التشريع صريحاً لا لبس فيه، وهذا الذي كان.

ليست المسألة أن عبد الله بن جحش قد خالف أمر النبي فهذا أمر مفروغ منه ولا محل للبحث فيه.

إن المسألة هي ما الحكم بعد الآن في قتال الأشهر الحرم؟ وماذا يبلغ من حق المشركين في الإحناء بجرمة هذه الأشهر إذا كانوا لا يرعون للمسلمين حرمة ولا يزن لون يقتلونهم ويردونهم عن دينهم ما استطاعوا؟ وما الجواب على شهير قرير واحتجاجها بالحرمة التي لا ترعاها؟.

هذا هو الحكم الذي وجب أن يعلمه لإسلام، وقد أعليه على الوجه الذي دلت به لشرائع المدينة في علاقاتها الحربية، ولا تزال تدن به حتى اليوم.

فهناك حرمان دولية إذا خالفتها إحدى الدول بطل احتماؤها بها، وأحل لغيره أن يخالعها كما خالفتها أو يتخذ من القصاص ما يردع الشر ويعوض الضرر، وإلا كانت الحرمان درعاً للمعتدين ولم تكن مانعاً لهم وسدّاً في وجوههم كما أريد بها أن تكون.

واليوم تنقطع العلاقة بين دولتين في حالة حرب أو جفاء، فيحوز لكتبيهما أن تحجز ما عندها من أموال الدولة الأخرى وأن تأسر الذين هي بلادها من رعاياها، ويجوز لها أن تجعل تلك الأموال ضماناً لسداد المعامير التي تنزل بها ويأمنائها، وأن تتخذ من المعتقلين رهائن تعاملهم بمثل ما يعامل به المعتقلون من أبنائها في سجون لدولة الأخرى.

هالدي حدث بعد سرية عبد الله بن جحش هو هذا بعينه، وهو حكم القانون الدولي المتفق عليه: أسيران بأسيرين، وأموال العير بالأموال التي حجزتها قريش للمسلمين، ولا محل لصحة الناقسين من المشركين وامتصاصين في تعقيبهم على هذا الحادث المألوف أو على حكم النبي والإسلام فيه، فإن أصحاب هذه الضجة يعمون عما حولهم ويسبون أن المعاملات الدولية في زمانهم لم تفصل في أمثال هذه الحوادث بحكم أنفع ولا أعدل من الحكم الذي ارتضاه النبي ونزل به القرآن، وهو حكم مساواة يدين به المسلمون كما يداينون، وبحار المعتسف لو شاء أن يستبدل به ما هو خير منه وأسى إلى البعد والاتباع.

غرضان:

وكان هذا القائد الملهم الخبير بتجنييد بعوث الحرب وبعوث الاستطلاع خبيراً كذلك بتجنييد كل قوة في يديه متى وجب القتال، إن قوة رأى وإن قوة لسان وإن قوة نفوذ، فما يعرف أن أحداً وجه قوة الدعوة توحيتها أسدلاً ولا أنفع في بلوغ الغاية من توجيهه عليه السلام.

والدعوة في الحرب لها - كما لا يخفى - غرضان أصيلان بين أغراضها
العديدة.. أحدهما إقصاء خصمك والدس بحقك، وهذا قد تكفل به القرآن
والحديث ودعاة الإسلام جميعاً، فالدين كله دعوة من هذا لقين

وثانيهما إضعافه عن قتالك بإصعاف عزمه وإيقاع الشدائد بين صفوفه
وربما بلغ النبي برحل واحد في هذا الغرض ما لم تبلغه الدول ما فرق المنظمة،
وبالحكاتب والناووين، وبدر الأموال

قال ابن إسحق ما ثقته ببعض تصرف «إن نعيم بن مسعود العصفاني أتى
رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا
بإسلامي . فمرني بما شئت..

فقال رسول الله ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن اسخطعت من
الحرب خدعة. (أي ادخل بين القوم حتى يحدل بعضهم بعضاً فلا يقوموا لنا
ولا يستمروا على حربنا).

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة - وكان لهم سيماء هي الجاهلية -
فقال: يا بني قريظة، قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم..

فقالوا: صدقت.. لست عندنا بمتهم

فقال لهم: إن قريشاً وعطفان ليسوا كأنتم. البلد بلكم، فيه أموالكم
وأبناؤكم ونسبؤكم لا تقدرين على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً
وعطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد طاهرتموها عليه، وبلادهم
وأموالهم ونسبائهم بغيره، ليسوا كأنتم.. فإن رأوا نهرة أصابوها وإن كان
غير ذلك جمعوا ببلادهم وحلوا بينكم وبين أرجل بلكم، ولا طاقة لكم به إن
خلا بكم، فلا تقاتلوه مع لقوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشراهم يكونون
بأيديكم ثقة لكم على أن تقتلوا محمداً حتى تاجزوه.

فقالوا له لقد أشرت بالرأي.

ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من قريش قد

عرفتم ودي لكم وفراقى محمداً وأنه قد بلغنى أمر قد رأيت على حقا أن
أبلغكموه نصحا لكم فاكتبوا عني!

قلوا: تفعل.

قال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد،
وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يوضع لك من
القيسيتين قریش وغطمان رجلاً من أشراهم فنعطيكهم فتضرب عنقهم، ثم
يكون معك عني من بقى منهم حتى نساأصلهم؟ فإرسل إليهم أن نعم، فبن بعث
إليكم يهود يلتسون رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

ثم خرج حتى أتى عطفان مقل. يا معشر عطفان، إنكم أهلى وعشيرتى
وأحب لناس إالى ولا أراكم تتهموننى قالوا. صدقت ما أتت عبدنا بمتهم...

قال: فاكتبوا عني.

قالوا: نفعل، فما أمرك؟

فقال لهم مثل ما قال لقریش وحنزهم.

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، أرسل أبو سفيان بن حرب
ورؤوس غطمان إالى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قریش
وغطمان، فقلوا لهم إنا لسنا بدار مقام، وقد هلك لحف والجافر.. فاعبدوا
للقتال حتى نناجر محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه، فإرسلوا إليهم إن اليوم يوم
السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، ولست مع ذلك بمقاتلى محمد حتى تعطونا
رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا، فإننا نخشى إن ضربتكم انحرب
واشتد عليكم القتال أن تنضمروا إالى بلادكم وتركونا والرجل فى بلادنا ولا
طاقة لنا بذلك منه.

علم رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قریش وعطفان. والله إن
الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إالى بنى قريظة إنا والله لا ندفع
إليكم رجلاً واحداً من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاحرجوا مقاتلوا..

وفالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا إن الذى ذكر لكم نعيم بن

مسمود لحق، ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهبوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وحلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم.

.. وخذل الله بينهم، وبعث الله عليهم الريح في ليالٍ شاتية باردة شديدة البرد، فحعلت تكفاً قدورهم وتطرح أيبنهم ثم رحت مريش وعصفان إلى بلادها، وانصرف رسول الله عن الحندق راجعاً إلى المدينة.

هذه دعوة نعيم بن مسعود

وما تجحت دعوة قط يرحل واحد بجاح هذا الرجل، ولا انتهزت فرصة العناصر الطبيعية والعناصر التي تتألف منها جماعة الأعداء كما انتهزت هذه الفرصة.. فكل كلمة قيلت لطائفة من طوائفهم فهي الكلمة التي ينبغي أن يقال في الوقت الذي ينبغي أن تفعل فيه فعلها، وهذه هي دعوة الإضعاف والتعريق كأمضى ما تكون.

قائد بغير نظير:

عند تنقذ المقارنة بين المعارك القديمة والمعارك المصرية ينبغي أن ننظر إلى فكرة القائد قبل أن ننظر إلى ظواهر المعارك أو إلى أشكالها وأحجامها، لأننا إذا نظرنا إلى الظواهر فلا معنى إذن للمقارنة على الإطلاق، إذ من المقطوع به أن عشرة ملايين يجتمعون في ميدان واحد أضخم من عشرة آلاف، وأن حرباً تدار بالمدافع والتلغراف والتلغراف أعجب من حرب تدار بالرمح والإشارة، وأن نقل الجنود بالطائرات والدبابات أسرع من نقلهم على ظهور الحيل والإبل، وأن المدفع أمضى من السيف، والرصاصه أمضى من السهم، فلا معنى إذن لمقارنة بالظواهر تنتهي إلى نتيجة واحدة.. هي استسخام الحرب الحديثة والنظر إلى القيادة العابرة كأنها شيء صغير إلى جانب القيادة التي توجه هذه الضخامة

لكننا إذا نظرنا إلى فكرة القائد، أمكننا أن نعرف كيف أن توجيه ألف رجل قد يدل على براعة في القيادة لا تراها في توجيه مليون، بينهم الراحل والراكب، وممن من يركبون كل ما يركب من مخلوقات حية وآلات مخترعة.

وهذه الفكرة هي التي تربىا محمدٌ عليه السلام قائداً حريصاً بين أهل زمانه بغير نظير في رأيه وفي الانتفاع بمشورة صحبه، وتبرز لنا قدرته الفادرة بين قادة العصور المختلفة في توجيه كل ما يتوجه على يدي قائد من قوى الرأي والسلاح والكلام

وهذه القدرة هي شهادة كبرى للرسول تأتي من طريق الشهادة للقائد لحيير بفنون القتال.

فمن كانت عنده هذه الأداة النافذة فاقصر بها على الدفاع واكتفى منها بالضروري الذي لا محيص عنه، فذلك هو الرسول الذي يلقب فيه الرسالة على القيادة العسكرية، ولا يلجأ إلى هذه القيادة إلا حين توجبها رسالة الهداية ويريد هذه الشهادة عظماً أن الرجل الذي يجتنب القتال في غير ضرورة رجل شجاع غير هيب.

شجاع وليس كبعص الهداة المصلحين الذين تجور فيهم فضيلة الطيبة على فضيلة الشجاعة، فيحجمون عن القتال لأنهم ليسوا بأهل قتال.

إن بعض المستشرقين زعموا أنه ﷺ قد اشترك في حرب الفجار بتجهيز السهام، لأنه عمل أقرب إلى خفه من لحوض في معمة القتال، وكأنهم أرادوا أنه لم يكن قادراً على المشاركة في المعركة بغير ذلك.

فهذا خطأ في الإحاطة بمرام هذا النفس العظيمة التي تعددت جوانبها حتى جمعت فيها أطيب صفات الحنان وأكرم صفات البسالة والإقدام .

فمحمد كان في طليعة رجاله حين تحندم نذر الحرب ويهاج شواظها من لا بهاب، وكان على فارس الفرسان يقول: «كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله ﷺ.. فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو».

ولولا ثباته في وقعة حنين، وقد ولت حمهرة الجش وأوشك أن ينقرض وحده في وجه الرماة والطاعنين، لحقت الهزيمة على المسلمين.

وخروجه والليل لما يسفر عن صبحه ليطوف بالدينة مستطلعاً، وقد هددها الأعداء بالعاراة والحصار أمر لو لم تدعه إليه الشجاعة الكريمة لم يدعه إليه

شيء لأن المدينة كانت يومئذ حافلة بمن يؤذون عنه مهمة الاستطلاع وهو قريب في داره، ولكنه أراد أن يرى بنفسه فلم يشه خوف ولم يعهد بهذا الواجب إلى غيره.

ومشاركته في الوقعات الأخرى هي مشاركة القائد الذي لا يعفى نفسه وقد أعفته إقياة من مشركه الجند عامة فيما يستشهدون له، فهي شجاعة لا تؤثر أن تتواري حيث يتاح لها أن تتواري، وعددها العذر المقبول بل لعذر المحمود. وإذا كان القائد حبيراً بالحرب قديراً عليها غير هيات لخسوفها، ثم اكتفى منها بالضروري الذي لا محيص عنه، فذلك هو الرسول تأتبه الشهادة بالرسالة من طريق القيادة العسكرية، وبأى جميع صفاته الحسنى تبعاً لصفات الرسول.

خصائص العظمة:

لكن للعظمة خصائص تدعو إلى العجب، وإن كانت معروفة الأسباب، وبذلك بالعظمة التي ترتقى هذا المرتقى.

فمن تلك الخصائص أنها قد توصف بالنقيضين في وقت واحد لأنها متعددة الجوانب، فيراها أناس على صورة ويراها غيرهم على صورة أخرى، وربما رأوها العين لواحدة على اختلاف في الوقتين المحتتمين.

ولأنها تبعث الحب الشديد كما تبعث البغض الشديد وبين الطرفين مجال الاعتدال يستقيم للراشدين، ومجال للمعداة من هنا وللمعالة من هناك..

ولأنها عميقة الأغوار فلا يسهل استيطانها لكل ناظر، ولا يتأتى تفسيرها لكل مفسر.

وهذا إذا سلعت نفوس من سوء النية، فأمّا إذا ساءت النيات وراى الهوى على الصائير فلا عجب إذن في الضلال.

ومن خصائص العظمة السوية في محمد عليه السلام أنه وصف بالنقيضين

على السنة، المنعصبين من أعداء دينه.. فهو عند أناس منهم صاحب رقة تحرمه القدرة على القتال، وهو عند أناس آخرين صاحب قسوة نصرته بالقتل وإهدار الدماء البشرية في غير جريرة، وتتره محمد عن هذا وذاك..

فإذا كانت شجاعته عليه السلام تنفي الشبهة في رقة الضعف والخوف المعيب، فحياته كلها من صفاته الباكورة تنفي الشبهة في القسوة والجفاء، إذ كان في كل صلة من صلاته بأهله أو مرضعته أو بصحبه أو بزوجاته أو بخدمة مثلاً للرحمة التي عز بظيورها في الأنبياء.

ولا ينفك كثيراً عند الحوادث التي ذكرها المنعصبون ليستدلوا بها على إهدار الدماء في غير جريرة، فأكثرها لم يثبت قط ثبوتاً يقطع الشك فيه، ولا سيما القول بنهر بن النسي على السلام على قتل عصماء بنت مروان اليهودية لأنها كانت تهجو الإسلام والمسلمين، فإن النبي عليه السلام قد نهى في قول صريح عن قتل النساء وكرر بهنه في غير موضع، حتى قال بعض الفقهاء بمنع قتل المرأة وإن خرجت للقتال، ما لم يكن ذلك لدفع خطر لا يدفع بغير قتلها.

والحدث الوحيد الذي يستحق الالتفات إليه هو مقتل كعب بن الأشرف الذي كان يهجو المسلمين، ويقذح في دينهم، ويؤلب عليهم الأعداء، ويأمر بقتل النبي، ويدخل في كل دسيسة تنقض معالم الإسلام وكان مع قومه بني النضير معهداً على أن يحالف المسلمين، ويحارب من يحاربهم ولا يخرج لقاتلهم ولا يقبلهم إلا بما يقابل به الحليف حليفه من المودة والمعونة.

فقبض العهد وزاد على بقصه تأليب العرب مع قومه على النبي وصحبه، وأنه رجع إلى المدينة «فشبيب بنسائه المسلمين حتى أذاهم» وفترى عليهن وعليهم ما ليس بفقره رجل شريف وبنس برضاه في عرضه عرى غيور.

ورد في حديث مقتلته أن الرهط الذين خرجوا لقتله انتهوا إلى حصنه، فهتف به أمويثة - وكان حديث عهد بعرس حوثب في ملجأه - فهاضت امرأته مناجيتها وقالت «إني امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة».

وصدقت امرأته حين وصفت به بأنه مصارب يعامل معاملة المحاربين وقد حشوا

فى أيمانهم، فم يكن راعياً لعهدده ولم يكن له وارع من نفسه ولا من قومه ولم يكن مأموناً على مسلمين وهو لاند بحصنه فهو أقل الدس حقاً فى أمان.

وحاء فى الخبر أن النبي عليه السلام أقر مقتله، فعاب بعض المؤرخين الأوربيين ذلك وحسبوه خروجاً على سنن القدل يشبه فعلة ناطليون الكبير حين أمر باختطاف الدوق دنجبان ومحاكمته بعير حق، مع ما بين الحادثين من بون بعيد بيباه من قبل فلا نعود إليه.

إلا أننا نوجر هنا فلا نريد على أن تشير إلى حكم القانونى الدولى فى أحدث العصور على من يؤحنون بصنيع مميت كصنيع ابن الأشرف، وإن لم يبلغ من الغر والكند والإساءة إلى الأعراض.

ودلك هو حكم الأسير الذى يطلق بعهد الشرف ألا يعود إلى القتل، فإن القانونى الدولى يوجب عليه أن يرفى بعهدده ووجب على حكومته ألا تتخذة إلى عمل ينقص م عاهد الأعداء عليه، ويقصى بحرمانه حق المعاملة كما يعامل أسرى الحرب إذا شهر السلاح على الذين أطلقوه أو على حلفائهم المحاربين فى صفوفهم ويصح إذن أن يحكم كما يحاكم المدبون ويقصى عليه بالموت^(١).

فقوانين العصر الحديث إنى تعاقب بالموت جريمة أهون من جريمة كعب بن الأشرف بكثير، لأنه تمارز الغدر إلى التائب والانتصار وتلب الأعراض.

وليس فى توقيع هذه الأحكام قسوة ولا رحمة، لأن المرجع فيها إلى الصرورة التى أوجبت القصاص ومرضته على الدس فى أحوال المسلم بين أبناء الأمة الواحدة، فضلاً عن أحوال القتال بين الأعداء.

أسرى غزوة بدر:

ويلحق بقتل ابن الأشرف ما أحذه بعض المستشرقين من قتل بعض الأسرى بعد غزوة بدر وخروج النبى إلى ساحة الحرب لرؤية مرمى المعركة وعنائها بعد انتهائها.. فهو أمر لا يصح الحكم فيه إلا بالنظر إلى موضعه وموقعه وأشخاصه، لأنه ليس بالحكم العام الذى أتبعه الإسلام فى جميع الأسرى

(١) «لويسهيم» الجزء الدس صفحة ٢٠٢

وجميع الحروب، وإنما هي حالة أفراد كانوا معروفين بتعذيب المسلمين والتكفل بهم في غير ميالة ولا بخرة. وليست هي كحالة الأسرى الذين يقعون في أيدي أعدائهم غير معروفين بماضٍ ولا بحاضر سوى أنهم جند كسائر الجند الذين يحشدتهم الأعداء، فقتل الأسرى بعد بدر إن هو إلا قصاص كقصاص المتهمين بالتعذيب وقد وقعوا في أيدي من يتولى عقابهم من العائين. جاز هذا في كل قانون، وجاز أن يحاسب المفلوب على جرائمه التي ليست هي من فروض القتال أو من مباحثته في شيء.. وفرق بين معاملة هؤلاء ومعاملة أسير كل ما تعلمه في شأنه أنه جندي لا بعصاء بيك وببيته قبل حمل السلاح ولا بعد وضع السلاح، وليس في عمله محل للثأر والمحاسبة بعد انقضاء واجبه، وهو القتال الشريف.

أما رؤية القتلى في ساحة الحرب، فقد نسي فيها أولئك الناقصون أن اغتباط المنتصر بفوزه طبيعة إنسانية لا غضاضة فيها ما لم تجاوز حدها إلى الفرح برؤية الدماء لحصن الفرح برؤية الدماء. وهذا ما لم يزعمه أحد من شاهدي الحركة عن النبي ﷺ، ولا نم عليه كلام أحد من المشركين أو المسلمين.

ونسي أولئك الناقصون كذلك أن الرجل الذي يرى الدم في المدينة العصرية، غير الرجل الذي يرى الدم في حروب البادية وفي حياة البدية على الإجمال، ويعنى بها حياة الرعاة التي تتكرر فيها إراقة الدم كل يوم، وحياة القبائل التي كانت تغزو وتغزى هي كثير من الأمام.

فإنك لا ترمى بانقسوه طبيياً قد ألف النظر إلى الجثث وأشلائها ولأجسام الحية وجراحها، لأن الصب لن يكون في الدنيا رحمة من الرحمة إن لم يألّف الأطباء هذه المناظر ويملكوا حششهم وهم يفتحون أعينهم عليها. ولكنك قد ترمى بالقسوة إنساناً لم تقع عيه على منظر مثلها ثم هي تفاجئه فلا يعرف منها. وما من رجل عاش في البادية وشهد غزوة من غزواتها يمكن أن يقال فيه إن ساحة الحرب تفاجئه بما لم يكن يراه، أو بما يستلزم النظر إليه مسوه في الطباع واستراحة إلى رؤية الدماء..

كان على أولئك الناقدين أن يشهدوا بدرأ، لينظروا بعين النفي إلى مواقف هذه الواقعة التي أوشكت أن تصبح الواقعة الحاسمة في تاريخ الإسلام.

كان عليهم أن ينظروا هناك معين النبي إلى جيشين، أحدهما فيه السلاح والحصن والعدد، والآخر في ثلث من يقاتلونه هدماً، ويكاد أن يتجرد من كل سلاح غير السيف، ومن كل مطية غير الأقدام.

وكان عليهم أن يلمسوا إشفق النبي من عاقبة هذه الواقعة ويستمعوا إليه وهو يبشدر به: «اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تكذب رسولك اللهم فتصرك الدي وعدتي، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد...».

وكان عليهم أن ينظروا إليه، وقد مد يديه وشخص ببصره وجمع نفسه في صلاة، حتى جعل رداؤه يسقط عن منكبيه وأبو بكر يرده ويباديه: «بعض ما شئت ربك فإن الله ممر لك ما وعدك» وهو لا يلتفت إلى سقوط رده ولا إلى مذلة صفيه، لاستغراقه في الدعاء....

وكان عليهم أن تعلموا حرص قريش أن يستبقوا رجالاً منهم، يرجعون إلى مكة قبل المعركة أو بعد، ليناثروا على مساواة النبي وعادة الكرة عليه حتى لا يهدأ له بال بعد الصبر على هذا الجهد، وليس يصبر عليه يسير.

كان على الناقدين أن يعلموا هذا كله ليعلموا أن الشعور بالفرح في مثل هذا الموقف العصيب أمر لا عراية فيه، وأنه شعور مصبوغ في نفس حية تجارب كل ما يحيط بها من بواعث الحياة في موقف السهم أو مواقف القتال. هائل ما يباشر النفس الحية من شعور مطبوع صادق في ذلك الموقف أن تعتبط بالنصر، وتخرج من الضيق إلى الفرج، وتنتظر في ساحة الحرب إلى من قصى قنح من قريش ومن عاد منها إلى وكرة ليعيد الكرة ويستأنف الإيذاء والمكيدة، وأن ترى ما هي تلك الأسلاب والغنائم التي أوشكت أن تفتن بعض المفتلين لأنها أول شيء شهده من نوعه، ولما ينزل حكم لادين في سلب أو عيمة.

إن محمداً رحل حتى جيبش النفس بنوافع الصاة، وليس يداسك مهول من داسك الصوامع الذين يكتمون في جراتهم كل دافعة وكل إحساس. فامتناعه أن يشهد نتيجة المعركة التي سبقتها كل تلك المخاوف ومنتلق بها كل تلك

الغواقب أمر لم يكن بالمنتظر من قائد في مثل موقعه، ولم يكن توجيه الفطرة الإنسانية على اقبال، وهو في اللحظة الأولى بعد الظفر طيق أن يعلم مدى انتصاره ومدى ما يتوقعه بعده، ومدى ما فعلته الفتة، لهيله بأهنة الكثير، ليقس عليه ما تفعله مثلها فيما يليها من وقعات. وهؤلاء مراسلو الصحف المربيون الذين يدرسون اليوم أشبه هذه المواقف يجدون من وجيبهم ألا يتخلفوا عن ساحات القتال بعد انجلاء الفريقين، ليشرحوا دروس النصر والهزيمة بينهم ويسجلوا ما لا عى عن تسجيله في جميع الحروب. فأنصراهم محمد عن ساحة بدر على أثر النصر عمل عريب يخل بمكانة القائد ويواجه التحقيق والاستعادة من كل ما يقبذ.

بعد معركة الأحزاب:

ونحن في صدد الحديث عن الرحمة والفسوة بحسن بدا أن نستقصى ما ذكره المؤرخون الأوربيون من ماخذ في هذا الباب، وأهمه - عدا ما قدمناه - قتل مقاتلين من بني قريظة بعد معركة الأحزاب.

فإن أولئك المؤرخين يستعظمون قتلهم ويحسبونه مخالف لمعرف المنع في الحروب، وينسبون أمورا لا يصدق لحكم في هذه المسألة ما لم يدكروها ويستحصروها أتم استحضار. وهي أن بني قريظة حنتوا هي أيماهم مرات فلا يحدى معهم أخذ الموشق من جديد، وأنهم قتلوا حكم سعد بن معاد وهم الدين احتاروه، وأن سعدا إنما دابهم ببص التوراة الذي يؤمنون به كما جاء في النثية: «حين تقرب من مدينة لكي تعاربيها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك وإن لم تسالك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إليك إلى ذلك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والمهتم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتعنها لنفسك وتكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إليك....».

(أصحاح ١٠ إلى ١٥ نثية)

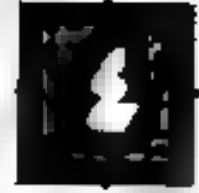
ويجب أن يسأل الباقون أنفسهم بعد هذا ماذا كان مصير المسلمين لو ظفرت بهم الأحزاب؟

فالقضاء الذي قضاه النبي في بني قريظة عدل وحكمة وصواب، وما من أحد يقضى غير ذلك القضاء وهو مؤتمن على مصير أمة يرحمها من غدر أعدائها، ومن لددهم في خصومتها، ومن استباححتهم كل منكر في التريص والوثبة بعد الوثبة عليها.

وإن حملة تأديبية واحدة من حملات العصور الحديثة يحملها قوم مسحون على قوم عزل بذنوب عن أوطانهم وحقوقهم، تُفبها من البطش والتعذيب عالم يحدث قط نظير له في عقب بني قريظة، ولا في جميع الحروب التي نشبت بين النبي عليه السلام وبين أعداء له ولدينه، هم المفقون عليه في العدد والثروة والسلاح

إن عبقرية محمد في قيادته لعقريه ترضاها فنون الحرب، وترضاها المروءة، وترضاها شريعة الله والنام، وترضاها الحصار في أحدث عصوره، ويرضاها المنصفون من الأصدقاء والأعداء.

عبقرية محمد السياسية



سياسة الخصوم والأتباع:

السياسة على معانٍ كثيرة في العرف الحديث..

فمنها ما يكون بين بعض الدول وبعض من المراسم والعلاقات، ومنها ما يكون بين هذه الدول من معاهدات وخطط في أعمالها الخارجية، ومنها ما يكون بين الراعي ورعيته أو بين الأحزاب والوزارات من برامج ودعوات. ولكل معنى من هذه المعاني اصطلاحه في العرف الحديث، وإن جمعتها كلمة السياسة في اللغة العربية.

وقد نوى النبي عليه السلام أعمالاً كثيرة مما يطلق عليه لفظ السياسة في عموم مدلوله.. ولكننا لا نعرف بينها عملاً واحداً هو أدخل في أبواب السياسة، وأجمع لصروبها، وأبعد عن المشاركة في صفة القادة العسكرية أو صفة الوعظ العلني أو سائر الصفات التي اتصف بها عليه السلام من عهد الحبيبية في مراحلها جميعاً، منذ ابتداء بالدعوة إلى الحج إلى أن انتهى بنقص الميثاق على أبيدي قريش..

ففي عهد الحبيبية تدبير محمد في سياسة خصومه وسياسة أتباعه، وفي الاعتماد على السلم والعهد حيث يحسنان ويصلحان، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسألة ولا تصلح العهود.

بدأ بالدعوة إلى الحج، فلم يعصره في تلك السنة على المسلمين المصدقين لرسالته.. بل شمل به كل من أراد الحج من أبناء القبائل العربية التي تشارك المسلمين في معظم البيت والسعى إليه فحمل له وللعرب أجمعين قضية واحدة هي وجه قريش، ومصلحة واحدة في وجه مصلحتها، وفصل بذلك بين دعواها ودعوى القبائل الأخرى، ثم أفسد على قريش ما تعمدوه من إثارة نخوة العرب وتوجيهها إلى مناوأة محمد والرسالة الإسلامية. فليس محمد وأصحابه أناساً

معزولين عن الخوة العربية يضعون من شأنها ويضطرون مفاحرف، وكبهم إبن
عرب يتصر بهم العرب ولا ينلون باستصارهم، أو يقطعون ما بينهم وبين آبائهم
وأجدادهم. فإذا خالفوا قريش في شيء فذلك شأن قريش وحدهم أو شأن
المتنفعين من قريش بالسيطرة على مكة، وليس هو شأن القبائل أجمعين.

ثم أقسدت على قريش من جهة أخرى ما تعمدوه من إعضاب العرب على
الإسلام، بما ذموا من قطعه للأرراق، بهديده للأسواق التي يعمرها الحاج
ويستفيد منها الغدود إلى مكة والرائعون منها، فها هو ذا محمد نفسه يأخذ
معه المسلمين إلى مكة كما تأخذ معه من شاء مصاحبته من غير المسلمين
قصار البيت الحرام. فإذا حل بينهم حدث وبين ما يقصنون إليه، فذلك حمايته
وذلك وزره على نفسه وعلى قومه، ولا وزر فيما أصاب الأرزاق أو أصاب
الأسواق على المسلمين.

وقد سمعنا كثيراً في العصور الحديثة عن المقاومة السلبية أو إحقاقه لتي
تجتنب العنف ولا تعتمد على غير وجه الحق والحق.

سمعنا من في الحركة الهندية التي قام على رأسها غاندي وتابعه فيها
بعض مرعديه، حتى كان بها من الأثر في إرعاك الحكومة البريطانية ما لم يكن
للقبائل ولا للمشايخ الدامية.

وقيل يومئذ إن غاندي قد تتلمذ في هذه الحركة على المصلح الروسي الكبير
ليو تولستوي، وقيل بل هو أخرى أن يعرفها من آداب البرهميين والبوذيين التي
تحرم إيذاء أحبوان فضلاً عن الإنسان، قبل أن يشرع ليو تولستوي منحه
الجديد.

والذين قدوا بهذا الرأي الأخير استبعدوا أن يتفق المسلمون والبرهميون
والبوذيون على حركة غاندي وتبشيريه بتلك المقاومة السلبية لاعمقادهم أن
لإسلام قد شرع لقتال فلا يوائم المسلمين ما يوائم البوذيين والبرهميين، من
اجتساب القوة والتزام السلم وترك المقاومة.

لكن المثل لدى قدمه النبي صلوات الله عليه في رحلة الحديبية ببقص ما
توهموه، وبين لهم أن الإسلام قد أخذ من كل وسيلة من وسائل نشر الدعوة

بخصيص بجري في حينه مع مناسباته وأسبابه.. فلا هو يركن إلى السيف وحده ولا إلى السلم وحده، بل يضع كليهما حيث يوضع، ويدفع بكليهما حيث ينبغي أن يدفع. وهو الحكم المنصرف حيث يختار ما يختار، وليس الآله التي يسوقها السلم أو الحرب مساو الاضطراب.

وقد خرج النبي إلى مكة في رحلة الحديبية حاجاً لا غارماً.. بقول ذلك ويكرره ويقيم الشواهد عليه لمن ساءه، ويثبت بنية السلم بالتجرد من السلاح، إلا ما يؤدى به لغير المقاضين.

فلم يفصل بهذه الحطة بين ثعرب وقريش وحسب، بل فصل بين قريش ومن معهم من الأحابيش، وجعل الرعاء، وذوى الرأي يختلفون فيما بينهم على ما يسلكون من مسلك في دفعه أو قبوله أو مهادنته، وهو عليه السلام يكرر الوصاة لاتباعه بالمسئلة والصبر معاً للاتفاق بين خصومه على قرار واحد، وقتل من أتباعه من أدرك قصده ومرماه حتى الصعوبة المحتررين.

ولما اتفق الطرفان -المسلمون وقريش- على التعاهد والتهادن، كانت سياسة النبي في قبول الشروط التي طلبها قريش غاية في الحكمة والقدرة «الدبلوماسية» كما تسمى في اصطلاح السياسة المحدثين..

دعا يعلى بن أبي طالب فقال له: كتب «بسم الله الرحمن الرحيم».

فقال سهيل بن عمرو مندوب قريش: «أمسك! لا أعرف الرحمن الرحيم، بل اكتب باسمك اللهم».

فقال النبي: «اكتب باسمك اللهم».

ثم قال: «اكتب (هذا ما صالحوه محمد رسول الله سهيل بن عمرو)».

فقال سهيل: «أمسك! لو شهدت أنك رسول الله لم أقف تلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك».

وروي أن علياً تردد فمسح النبي ما كتب بيده، وأمره أن يكتب «محمد ابن عبد الله في موضع محمد رسول الله».

ثم تعاقدوا على أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن ولله رده عليهم،

ومن جاء قريشاً من رجال محمد لم يردوه عليه، وأنه من أحب من العرب مخالفة محمد فلا جناح عليه، ومن أحب مخالفة قريش فلا جناح عليه، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعوبوا إليها في العام الذي يليه، ويقبموا بها ثلاثة أدم ومعه من السلاح السيوف هي هربها، ولا سلاح غيرها.

وبو كان عهد الحديبية هذا قد كتب يعد قتال انهزم فيه المشركون وانتصر فيه المسلمون، لوحب أن يكتب على غير هذا الأسلوب، فيعترف المشركون كرهاً أو طوعاً بصفة النبوة ولا يربون أحداً من موليهم أو قاصريهم يذهب إلى النفس ويلحق بالمسلمين.

ولكنه عهد مهادبة أو عهد «إيقاف أعمال العداء إلى حين» كما يسمونه في اصطلاح العصر الحاضر فلا يعوزه شيء من الأصول المرعية في أمثال هذه الجهود، من إثبات صفة المندوبين التي لا إرغام فيها لأحد لطرفين ولا مخالفة لدعوى الفريقين، ومن حفظ كل لحقه في تجديد دعواء واستئناف مسعاه.

فلو أن النبي عليه السلام شرط على قريش أن ترد إليه من يقصدها من رجاله لنقض بذلك دعوى الهداية الإسلامية، ونقص الوصف الذي يصف به المسلمين، فإن المسلم الذي يترك النبي باختياره ليلحق قريشاً ليس بمسلم، ولكنه مشرك يشبه قريشاً في دينها وهي أولى به من بيي الإسلام.. أما المسلم الذي يرد إلى المشركين مكرهاً فإنما الصلة بينه وبين النبي هي الإسلام، وهو شيء لا سلطان عليه للمشركين، ولا تنقطع الصلة عنه بالبعد والقرب، فإن كان الرجل ضعيف الدين ففتتوه عن دينه فلا خير فيه، وإن كان وثيق الدين فحقى على دينه فلا خسارة على المسلمين.

وما انقضت فترة وجيزة حتى علمت قريش أنها هي الخاسرة بذلك الشرط الذي حسنته عملاً لها وخدلاً لمحمد صلوات الله عليه.. فإن المسلمين الذين نفروا من قريش ولم يقبلهم محمد في حوزته رعية بعهد، قد خرجوا إلى طريق القوافل على تجارة قريش يأخذونها وهي أمان في عهد الهدنة بين الطرفين، فلا استطاع المشركون أن يشكوههم إلى النبي لأنهم خارجون من ولايته بحكم

الهدية، ولا استطاعوا أن يحجزوهم في مكة كما أرادوا يوم أموا شروطهم في عهد الحديبية، ولو قصى العهد بولايه النبي على من يهر من مسلمي مكة لجار للمشركين أن ينقضوه أو يطالبوا النبي بالمحافظة عليه.

وم العهد.. فعرف من لم يعرف ما أقام على الإسلام بعد قليل، فجهر بمخالفة النبي من لم يكن يجهر بولائه.. واستراح النبي من قريش ففرع ليهود خيبر وللممالك الأجنبية يرسل الرسل إلى عظمائها بالدعوة إلى سنة، وفتح الأبواب لمن يفسدون إليه ممن أنكروا بعي قريش وأمنوا أن تكون نصرتهم للإسلام حرباً يبتلون فيها بما لا يظنون.

ويوم نزلت الآية الكريمة على أثر اتفاق الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۚ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ سِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (الفتح: ١، ٢)

لم يفقه الكثيرون معناها في حينها، ولم يتبينوا موضع الفتح من ذلك الاتفاق الذي حسبه محض تسليم، ولكنهم فهموا أي فتح هو بعد سنتين، وعلموا أن من الفتح ما يكون بغير السيف، وما يشبه الهزيمة في ظاهره عند من يتعجلون ولا يحسنون النظر إلى بعيد..

الفتح المبين:

كان في تلك السنة فتح يراه الناظر بعين العيب ولا يراه الناظر بعينه، ولكنها سنة واحدة ثم رأى الفتح المبين من لا يرون غير العيين.. رأوه وامتلات عيونهم بالنظر إليه، فسر قوماً وساء آخرين.

ففي السنة التالية يادى الرسول أصحابه أن يتجهزوا للحج ولا يحلف أحد ممن شهد الحديبية، فخرجوا في شوق المطلق بعد متع وانتظر بعد صبر، إلا من استشهد في خيبر وأدركته الوفاة خلال العام، وخرج معهم جمع كبير ممن لم يشهدوا الحديبية يتبعهم النساء والأطفال، وساقوا أمامهم ستين

مدينة مقلدات للهدى، وقد حملوا السلاح والدموع والرماح وعلى رأسهم
مائة فارس يقودهم محمد بن سلمة.

فلما انتهى الرسول وصحبه إلى ذي الحليفة قدم الحيل أمامه، وعمت
قريش سائناً ففرعوا وبعثوا بمكرز بن حفص في نفر منهم فحذروا يقولون
«والله يا محمد ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالعبر تدخل بالسلاح في الحرم
على قومك وقد شرحت عليهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافرين السبوف في
القرب؟» فقال ﷺ «إني لا أدخل عليهم» قل مكرز «هو الذي تعرف به البر
والوفاء».

وإما حمل النبي السلاح للحيلة كب قال لسممه «إن حاجنا هائج من
القوم كان السلاح قريباً منا». وتركه في الحراسة على مقربة من مكة حيث
يوصل إليه عند الحاجة إليه.

ثم أهل عيه اسلام على دفته القصواء وجموع المسلمين محدقون به متوحشون
بالسيوف يلون ويهللون، وأخذ عبد الله بن رواحة بزمام القصواء وهو يندس.

خو يا بني الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير في رسوله
يا رب إني مؤمن بقبله إني رأيت الحق في قبله

وأوشك وقد هرتة النخوة أن يصبح في قريش صيحة الحرب فنهاه عمر -
رصى الله عنه - وأمر النبي أن يبادى ولا يريد «لا إله إلا الله وحده نصر
عنده، وأعز جده وخذل الأحزاب وحده». فرقع ابن رواحة بها صوته الحهير،
وتلاه المسلمون يرددونها وتهتز بها جذبات الوادي القريب، يسمعونها من فارقوا
مكة لكيلا يسمعوه ولا يروا ركب النبي يخطو في نواحيها.

وكان الفتح الذي بصر به عياناً من لم يره يوم الحديبيه بنور البصيرة.
وأسلم من الضعفاء والأفرياء من كان عصياً على الإسلام فريق منهم بهرهم
وفاء النبي معه مع استطاعة نقصه، وفريق منهم راعهم سميت الدين ورحم
الإسلام فيما بين المسلمين، وجمال ما بينهم وبين ببيهم من طاعة وتمكين،
وفريق منهم علموا أن العقبة للإسلام محصوا إلى طريق السلامة والسلام،
وحسبت أن عمرة انقصاء هذه قد جمعت في آثارها من أسباب الاقتناع بالدعوة

،احمدية ما أفع خالك من الوليد وعمرو بن لعدص، وهما هي رجاءه لحلق
والعقل مثلاًن متكفنان، وإن كانا لا يتشابهان.

وهكذا تجت عبقرية محمد في سياسة الأمور كما تحست في قيادة الحوش.
فكن على أحسن نحاح في سياسته إذ نادى بعريمة الحج وهو لم يفتح مكة
معدده وعدته، وإن دعا المسلمين وغير المسلمين إلى مصاحبته في رحلته، وإن
توخي ما توخي من طريقة، لمسألة وإقامة لحجة في إفاذ عزيمته، وإن قبل
العهد ابدى كبر قبوله على أقرب المقربين من عترته وإن نظر إلى عقباؤه ووصل
به إلى انقصد الذي توحاه.

عبقرية محمد الإدارية



ملكات شخصية:

في الإسلام أحكام كثيرة مما يدخل في تصرف رجال الإدارة كما نسميهم اليوم، وفيه وصايا كثيرة عن المعاملات، كالمساواة والمبايعة والاستقراض والشفعة والتجارة وسائر شئون المعيشة الاجتماعية يقتدى بها المشترون في جميع العصور.

ولكننا لا نريد بما نكتب عن النبي أن نسرده أحكام الفقه ونبسط وصايا الدين، فهي مشروحة في مواظنها لمن شاء الرجوع إليها.

وإنما نريد أن نعرض لأعماله ووصاياه من حيث هي ملكات شخصية وسلائق نفسية. تكلّزه حيث كان مؤيداً لرسالة لدين أو مؤيداً لغير الرسالة من سائر أعمال الإنسان.

كذلك لا يعيننا مثلاً أن نتكلم عن «الإدارة» كأنها نصوص المنشورات والوائح التي تدار بها الدواوين وتجرى عليها تفصيلات الحركة في مكاتب الحكومة، فإن هذه وما إليها هي أعمال منفذين مأمورين وليست أعمال مبررين امرين، وإنما نعني الملكة الإدارية من حيث هي أساس في التفكير، من اعتمد عليه استطاع أن يقدم بناء الإدارة كلها على أسس قوية، ثم يدع لغيره تفصيلات الأضابير والأوراق.

فليس في وسع رجل مطبوع على الفوضى مسخف بالبيعة أن يؤسس إدارة نافعة ولو كان فيما عدا ذلك كبير العقل كبير الهمة.

أما السليقة المطبوعة على إنشاء الإدارة النافعة فهي السليقة التي تعرف النظام، وتعرف النجعة، وتعرف الاختصاص بالعمل، فلا تسنده إلى كثيرين متفرقين بيولاه كل منهم على هواه.

وقد كانت هذه السليقة في محمد عليه السلام على أتم ما تكون.

كان يوصى بالرياسة حيثما وجد العمل الاجتماعي أو العمل المجتمعي لذي يحتاج إلى تدبير، ومن حيث المأثور: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم». ومن أعماله لماثورة أنه كان يرسل الجيش وعليه أمير وخليفه للأمير وخليفة للحليفة إذا أصيب من تقدمه بما أقعده عن القيادة، وكان قوم الرئاسة والإمامة عنده شرطان هما جماع الشروط في كل رئاسة، وهما الكفاءة والحب، «أيما رجل استعمل رجلاً على عشرة أنفس علم أن في العشرة أفضل ممن استعمل فقد عثر الله وعثر رسوله وعثر جماعة المسلمين».

وه أيما رجل أم قوماً وهم له كارهون لم تجز صلاته أذنيه»

وكرر إلى عبايته بإسناد الأمر إلى المدير القادر عليه حرصاً على تقرير التبعات في الشئون ما كبر منها وما صغر، على النهج الذي أوضحه صلوات الله عليه حيث قيل «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت مغلها وهي مسئولة عنه، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه. ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

وقد كانت أوامر الإسلام ونواحيه معروفة لطبقة كبيرة من المسلمين أنصاراً كابوا أو مهجرين، ولكنه عنه السلام لم ينزل أحداً يدعى لنفسه حقاً في إقامة الحدود، ويكره الناس على مطاعة الأوامر واجتنب لنوهي، غير من لهم ولاية الأمر وسياسة الناس.

فلما قتل بعض المسلمين عداة فتح مكة رجلاً من المشركين غضب عليه السلام، وقال فيما قال من حيث المبين «... فمن قال لكم إن رسول الله قد قتل فسها فقولوا إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحللها لكم يا معشر خزاعة...» ولما أراد أن يصار الحمر نهج في ذلك منهجاً يقصد به إلى التحميم والاستئناس كما جاء في رواية من عمر حيث قال «أمرني النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن آتية بصدية، فأتيتها بها، فأرسل بها فأرھفت ثم أعطانيها فقال أعد علي بها. ففعلت، فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة وقبها رقيق الحمر قد جلبت من الشام فأخذ المدينة ملى فشق ما كان من تلك الرقيق بحضرته ثم أعطانيها، وأمر

الدين كانوا معي 'ن يمشوا معي ويعاينوني، و مري ان أتي الأسواق كلها فلا أجد فيها رق خمر إلا شققته ففعلت، فلم أترك في أسواقها رقاً إلا شققته».

وهذا تصرف المدير بعد تصرف النبي الذي يبين الحرام وبين الحلال فالخمر شربها وبيعها ونقلها حرام يعلمه جميع المسلمين، من نفقه منهم ومن لم ينفقه في الدين، ولكن المحرمات الاجتماعية تدعى أن تكون في يد ولي المسلمين لا في يد كل فرد يعرف الحلال والحرام وإليست المسألة هنا مسألة تحريم وتحليل، ولكنها مسألة إدارة وتنفيذ في مجتمع حافل يشتمل على شتى المصالح ولأهواء، ولا يصيب بلاء هو أضر عليه من بلاء الفوضى والاضطراب واختلاف الدعاوى وانتزاع الطاعة ونهاهل السفطان، فلم يكتف النبي عليه السلام بصريح التحريم في القرآن ولا اكتفى بإسناد الأمر إلى غير معروف الصفة في تنفيذ الأحكام، بل خرج بنفسه ثم أمر وحلاً بعينه وأساساً بأعينهم أن يمشوا في إتمام عمله، ولم يجعل ذلك إذناً لمن شاء أن يفعل ما شاء.

وما أكثر ما سمعنا في أيامنا الأخيرة عن الأمن والنظام، وتوطيد أركان الشريعة والقبول، ولكننا لا نعرف في كل ما قيل كلام هو جمل لوجه الصواب في هذه المسألة من قول النبي «السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» ومن قوله فيما رواه عبادة بن الصامت «... ألا سارع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحد عندكم من الله فيه برهان». ومن قوله «الإمام الخائر خير من الفتنة»، وكل لا خير فيه، وفي بعض الشرعيات «ومن هؤلاء» (إن الأمير إذا ابغى الربية في الناس أفسدهم) إلى أحاديث في هذا المعنى هي جماع لصواب ما ينبغي بمقامه الإدارة الحكيمة، والحفظ السليمة المستقيمة، بين أمر ومأمور.

نظام وفوق النظام سلطان، وفوق السلطان برهان من شرع والعقل لا شك فيه، وجميع أولئك على سماحة لا تتعسف النزاع ولا تتعسف الربية ولا تلتمس العلواء.

هذا الإلهام النافذ السديد في تدبير المصالح العامة، وعلاج شئون الجماعات، هو لدى أوحى إلى الرسول الأسمى قبل كشف الجراثيم، وقبل

تأسيس الحجر الصحي بين الدول، وقبل العصر الحديث بعشرات القرون أن يقضى فى مسائل الصحة واتقاء نشر الأوبئة بفصل الخطاب الذى لم يأت انعم بعده بمزيد، حيث قال «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا قدحلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها».

فتلك وصية من ينظر فى تدبيره إلى انعدام الإنسانى بأسره لا إلى سلامة مدينة واحدة أو سلامة فرد واحد، إذ ليس أصون للعالم من حصر الوباء فى مكانه، ولجس من حق مدينة أن تنتشر السلامة لنفسها أو لأحد من سكانها بتعريض المدن كلها لعبوها.

تدبير الشئون العامة؛

على أن الإدارة العليا إنما تتجلى فى تدبير الشئون العامة حين تصطدم بالأهواء وينذر بالفتنة والبراع، فليست الإدارة كلها بصوصاً وقواعد يجرى الحاكم فى تنعيمها مجرى الآلات والموازين التى تصرف الشئون على نسق واحد، ولكنها فى كثير من الأحيان علاج بغوس وقيدة أخطار لا أمان فيها من الانحراف القليل هنا أو الانحراف القليل هناك.

وبك هو المجال الذى تمت فيه عبقرية محمد فى حلول اتوهميق واتقاء لشروء أحسن تمام، فما عرض له تدبر أمر من معضلات الشفق بعد لرسالة ولا قلبها إلا أشار فيه بأعدل الآراء، وأدناها، إلى السلم والإرضاء.

صنع ذلك حين احتلقت العدائ على أيها يستأثر بإقامة الحجر الأسود فى مكانه، وهو شرف لا تنزل عنه قبيلة ثقييلة، ولا تؤمن عقبي الفصل فيه بإيتار إحدى القبائل على غيرها ولو جاء الإيتار من طريق الصدفة والافتراء، فأشار محمد بأمرى الذى لا رأى غيره لماضى الوقت ولقل العيب المحلول. فجاء بالثوب ووضع الحجر الأسود عليه وأشرك كل دغم فى طرف من أطرافه، وكان من قسمته هو على غير خلاف بين الناس أن يقيمه بيده حيث كان، وأن يتسلف الدعوة وهى مكتوبة فى طوايا الزمان، ولو علموا بها يومئذ لما سلموا ولا سلم من عدوان وشيان.

وصنع ذلك يوم هاجر من مكة إلى المدينة فاستقبله الوفود تتنافس على

ضيافته ويزوله، وهو يشفق أن يقدح في نفوسها شرور العيرة بتميز أناس منهم على أناس أو اختيار محلة بون محلة، فترك لناقته خطامها تسير ويفسح أناس لها طريقها حتى دركت حيث حباب لها أن تبرك، وعصفت فيما لو فصلت فيه إنسان كبير أو صغير لما مضى نصه بغير جريرة لا تؤمن عقابا بعد ساعتها، ولو أمنت في تلك الساعة على دخل وسوء طوية..

وصبح ذلك يوم فصل بالعنانم أناساً من أهل مكة الصعيف إيمانهم على أناس من الأنصار الذين صدقوا لإسلام وثقوا على الجهد، فلما غضب المفضلون لم يكن أسرع منه إلى إرضائهم بالحجة التي لا تغلب من مدين بها، من تزيه أنه هو الغالب الكاسب وأنها تصيب منه انقع وإقناع في وقت واحد «أوجدتم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألمت بها قوماً ليسلموا ووكلكم إلى إسلامكم؟.. ألا ترصون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟.. فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار. اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار...».

كلام مدير فيه الإدارة والرياسة هبة من هبات الخلق والتكوين. فهو مدير حين تكون الإدارة تدبير أمور، ومدير حين تكون الإدارة تدبير شعور، وهو كفيل ألا يلي مصلحة من المصالح تعتورها الفوضى ويسطرقي إليها الاختلال، لأنه يسوسها بالنظم وبالمنفعة، وبلاحتصاص وبالسماحة، وما من مجتمع ساس بهذه الضمائل ويبقى فيه منفذ بعدها لاختلال أو انحلال، أو لخلل في إدارة الأعمال.

البليغ



«اللهم هل بلغت»!

هذه هي اللازمة التي ردها النبي في أطول خطبه الأحيرة، وهي خطبة الوداع.

وهي لازمة عظيمة الدلالة في مقامها، لأنها لحصت حياة كاملة في ألفاظ معدودات. فما كانت حياة النبي كلها بعمله وقولها وحركتها وسكونها إلا حياة تبليغ وبلاغ، وما كان لها من فاصلة حاتمة أبليغ من قوله عليه السلام وهو يجود بنفسه «جلال ربي الرقيع فقد بلغت».

ولصدق هذه الدلالة ترى أن السمة الغالبة على أسلوب النبي في كلامه المحفوظ بين أيدينا هي سمة الإبلاغ قبل كل سمة أخرى.. بل هي السمة الجامعة التي لا سمة غيرها، لأنها أصل شامل لما تفرق من سمات هي منها بمثابة الفروع.

وكلام النبي المحفوظ بين أيدينا إما معاهدات ورسائل كتبت في حينها، وإما خطب وأدعية ووصايا وأحوية عن أسئلة كتبت بعد حينها وروعت الدقة في المضاهاة بين رواياتها جهد المستطاع.

والإبلاغ هو السمة المشتركة في أفانين هذا الكلام جميعاً، حتى ما جرى منه مجرى القصص أو مجرى الأوامر إلى المرفوسين أو مجرى الدعاء الذي يُلْقَى المسلم لدعو الله على مثاله.

انظر مثلاً إلى قصة أصحاب الغار الثلاثة وتوسلهم بمصالح الأعمال وهي كما جاء في مختار مسلم

«... بينما ثلاثة نفر يمشون أخذهم المطر فأروا إلى غار في جبل، فاحتضت على فم غارهم صخرة من الجبل فامطقت عليهم. فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها، لعل الله يفرجها عنكم، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران،

وامرأتى ، ولى صبية صغار أرعى عليهم . فإذا أرحت عليهم حلست فبدأت
بوالدى فسقيتهما قبل نى . وانه نأى بى ذات يوم الشجر فلم أت حتى
أمست ، فرجدهما قد نما فحلست كما كنت أحلب فحنت بالحلاب ففمت
عند رؤوسهما أكره أن أوظفهما من يومهما ، وأكره أن أسقى الصبية قبلهما
والصبية يتضاغون عند قدمى فلم يرل ذلك دأى ودأىهم حتى طلع الفجر وإن
كنت تعلم أسى فعلت ذلك انتقاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء .

ففرح الله بها فرجة رأوا منها السماء ..

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم أحبيبها كأشد ما يحب الرجال
النساء ، وظللت إليها نفسها فأبت حتى أتيتها بمائة دينار ، فتعت حتى جمعت
مائة دينار ، فجئتها بها

فلما وقعت بين رجلها قالت يا عبد الله! اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه .
ففمت عنها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك انتقاء وجهك فافرج لنا منها
فرجة . ففرح لهم .

وقال الآخر : اللهم إنى كنت استأجرت أجيرًا بقر^(١) أرر ، فلما قضى عمله
قال : أعطنى حقى ، فعرصت عليه فرقه فرغب عنه ، فلم أزل أررعه حتى
جمعت منه بقرًا ورعاء ما فجاء نى وقال اتق الله ولا تظلمنى حقى! قلت :
ادهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها ففان : اتق الله ولا تستهزئ بى! فقلت
إنى لا أستهزئ بك . فخذ ذلك البقر ورعائها! .. فأحده فذهب به
فإن كنت تعلم أسى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقى .
ففرح الله ما بقى .

هذا أسلوبه عليه السلام فى التعلم بالقصص .

توجيه الأمراء والولاة:

فانظر إلى أسلوبه فى توجيه الأمراء والولاة كما جاء فى مختار مسلم
حيث قال : «كان رسول الله إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه فى
خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال اهزوا باسم الله فى

(١) إماء يسع ثلاثة أصع

سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله اعروا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا
تقتلوا وليدأ . وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال
فأبنيهن ما أحابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى التحول من
دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فبهم ما
للمهاجرين . فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب
المسلمين ولا يكون لهم في الغيمة والفيء شيء ، إلا أن يجاهدوا مع
المسلمين ، فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف
عنهم . فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم .

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل
لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه . ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم أن
تخروا ذمتكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله .

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على
حكم الله ولكن أرسلهم على حكمك ، فأب لا تدري أتصيب حكم الله فيهم
أم لا .

وهذا أسلوبه عليه السلام في تعليم الولاة بالأوامر والنواهي .

فانظر إلى أسلوبه في الرسائل من رسالته إلى السجاشي حيث قال «سَلِّمْ أُنْتَ .
فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، الملك القديس السلام المؤمن المهيمن ،
وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم السلول الطيبة
لحسية فحلت بعيسى فخالقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه .

وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالة على طاعته ، وأن تتبعني
وتؤمن بالذي جاءني وإني رسول الله .

وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا وقرأ معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم
ودع التجبر .. فإني أدعوك وجنودك إلى الله فقد بلغت وبصحت فاقبلوا
بصحي ..

والسلام على من اتبع الهدى

المعاهدات والمواثيق:

أما أسلوبه في المعاهدات والمواثيق فهذا طرف مما جاء في كتابه عليه السلام بين المهاجرين والأنصار واليهود.

«... المهاجرون من قريش على ريعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيتهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين

وبنو عوف على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم لأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو الحارث على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو جشم على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين...»

ومكذا إلى آخر الكتاب.

تلك النماذج من كلام النبي في أربعة أبواب مختلفات، تتفرق موضوعاتها كما تتفرق لقصوص والأوامر والرسائل والمواثيق، ولكنها كلها موصومة بسمة واحدة لا اختلاف فيها، وهي سمة الإبلاغ أو البلاغ المبين.

وأصدق ما يقال في تعريفها ما قيل في تعريف الخط المستقيم عند أهل الهندسة أقرب موصل بين نقطتين.

فليس أقرب من هذا الأسلوب في إبلاغ العرض منه.

لا كلفة ولا غموض ولا إغراب، وقلة الغريب -بل قدرته- في كلام النبي أجدر الأمور بالملاحظة في إقامة المثل والنماذج لأساليب البلاغة العربية.

فمحمد العربي القرشي الناشئ في بني سعد العالم بلهجات القدائل حتى ما تفوت لهجة قبيلة ثائية في أطراف الجزيرة، لم يكن في كلامه كله غريب يجهله السامع أو محتاج تنبيهه إلى مرجعة، وسر ذلك أنه يريد أن يبلغ أو يريد أن يصل إلى سامعه، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزاً من

اللفظ العريب أو المعنى الغريب، ومن ذلك ما روى عنه عليه السلام أنه كان يعبد الكلمة ثلاثاً لتعق عنه، وأنه كان ببعض استكلف والاعتزاز بالبلاغة كما قال: «إن الله تعالى يبغض البليغ من الرجل الذي يتدخل بلسانه تحلل الباقرة بلسانها»

وقد عرف عن النبي عليه السلام في حديثه الخاصة وانعامه أنه كان قليل الكلام معرضاً عن البغوا لا يقول إلا الحق وإن قاله في مزاج.

فمن ثم لا عجب أن يحلو كلامه من الحشو وانكرار والريادة، قيادا كرر اللفظ بعينه كما جاء في بعض المعاهدات فذلك أسلوب المعاهدات الذي لا محيص عنه، لأن تكرار النص يمنع التأويل عند اختلافه فهو أيضاً سمة من سمات الإبلاغ على سبيل التوكيد والتحقيق، أو على سبيل الإعادة التي روى أنه كان يوحها عليه السلام أحداً ليعق عنه كلامه.

وفي كتابه إلى الجاشي زيادة من أسماء الله الحسنى ومن الإشارة إلى المسيح وأنه لم تؤثر في تكبب لأخرى.. ولكنها ألزم ما يلزم في خطاب ملك مسيحي يراد منه أن يفهم كيف تتفق صفات الله والمسيح في دينه وهي دين المسلمين الذي يدعى إليه، وكيف يتفق طريق المقابلة بين العقيدتين إذا شاء.

ما على لرسول إلا البلاغ

وهذا هو البلاغ في التعبير كل كلمة بصر إلى سامعها، وكل كلمة مقصودة بمقدار..

ولا زخرف ولا حيلة ولا مشقة متعمل في ابتغاء التأثير، إلا الإبلاغ الذي يليق بالرجولة والكرامة، وعلى المعرض بعد ذلك وزر الإعراض.

سجع كحلية الذهب

وكان عليه السلام يكره «سجع الكهن» الذي يحددون به السامع ليوهموه أنه يستمع إلى طلائع السحرة واشياطين، ولكنه لم يكن يابى السجع بنة ولا يحلو كلامه من سجع يأتي على السجبة، ويعلب أن يكون ذلك فيما يرتل علابية

كالأذان وما هو في حكمه، أو فيما يحفظ من الوصايا الجامعة كقوله: «ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله؟ ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط، قضاء الله حق، وشرط له أوثق، وإعلاء المولاه لمن أعتقه أو ثولاه» إن الله حرم عليكم حقوق الأمهات ووآد البات، ومعا ومات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»

ومذهبه في هذه الحلية اللطيفة مذهبه في كل حية تليق بالرجل؛ فحوة في الفول ومحوه في الرينة، فسجعه عليه أسلام كحلية الذهب التي يسبق بالرجل أن يتحلى بها، ولا مرید.

كتب إليه أبو سفيان كتاباً يقول في آخره.

.. نريد منك نصف نخل المدينة، فإن أجبتنا إلى ذلك ولا أبشر بخراب الديار وقلم الآثار.

تجاوزت القبائل من نزار لصر اللات في السبت الحرام

وأقبلت الضراعم من قريش على خيبل مسومة ضرام

فأجابه بكتاب جاء فيه «وصل كتب أهل الشرك والتفان والكفر والشقاق، وفهمت مقالتيكم. فوالله ما لكم عندي جواب إلا أطراف الرماح وأشجار الصفاح، فارحموا ويلكم عن عبادة الأصنام، وأبشروا بضرب الحسام، وعلق الهم، وحراب الديار، وقلم الآثار...»

فهذا اسجع في هذا المقام أصلح لحطاب الحاهليين، لأنهم يعرفون منه معنى التوثيق والتمكين، كما يعرفون منه معنى المأجزة والتخويف ومن هذا أقر النبي نصر الحلف الذي كان بين جده وخزاعة على ما كان به من سجع وتفخيم يجعلونهما موثقاً تعقد به المواثيق ونؤكد به الحرمات. وهذا يصح

«بسمك اللهم. هذا حلف عبد المطب بن هاشم لخزاعة، حلفاً حاصلاً غير معرق الأشدخ على الأشباخ، والأصاعر على الأصاعر، والشاهد على الغائب قد تعاهدوا وتعاقبوا أوكد عهد، وأوثق عقد، لا ينقض ولا يتكث ما أشرقت شمس على ثبير، وحس بقلاة بغير، وما أقام الأحشبا^(١) واعتمر بمكة إنسان

(١) جلا مكة

حرف أبداً لطول أمد، يؤيده طلوع لشمس شدة، وطلام لير مداً، وإن
عند لمطب وولده ومن معهم ورجال خراعه متكفنون متضافرون متعاونون على
عند المطلب النصرة لهم بمن تابعه على كل طالب، وعلى خراعة البصرة
لعند المطلب وولده ومن معه على جميع العرب في شرق أو غرب، أو حرن أو
سهل، وحعلو الله على ذلك كفيلاً، وكفى به حميلاً...»

هذه أمثلة السجع الذي فاه به الرسول أو أقره من كلام غيره، وما عداه من
تجميل للكلام فهو تجميل لإبلاغ الذي لا كلفة فيه

وقد أعانه عليه السلام على أسلوب الإبلاغ أن الدين كانوا يستمعون إليه
إنما كانوا يستمعون إلى كلام نبي محبوب مطرّع، فهو ناهض في نفوسهم بغير
هيلة، مسجّمع لأسماءهم بغير نشوي، قائم بالكفاية الوسطى التي لا حاجة
بها إلى إفراط ولا خوف عليها من تفريط.

أما رسائله إلى الملوك والأمراء -ممن لم يسلم ولم يهتد- فإنما كانت للإبلاغ
أول الأمر، ثم يأتي بعدها التفسير والتفصيل على ألسنة المرشدين والموكلين
بالإجابة فيما يسألون عنه، فهي كذلك قائمة على كفاية الإبلاغ، تلك الكفاية
الوسطى التي لا إفراط فيها ولا تفريط.

ويقول إن الأمرين أعانا النبي على أسلوبه المبلغ البليغ ولا يقول إيهما
أنشأه وأوحياه. فإن الحوار القليل الذي حفظ لنا من أيام الدعوة الأولى قبل
استفصاة الدس وإقبات الأتباع المؤمنين فقد كانت به صيغة هذا الأسلوب
بعينه غير ظاهر فيها أثر من الكلفة والاصطناع، لأن مصدر الفحولة في
الإبلاغ ثقته بقوله لا ثقة المستمعين إليه، فكلامه، كله يسوق واحد في هذه
الحصيلة، وخطبه كله خطاب سهولة وكرامة وسياقه كله مطوّع لا احتيال
فيه، ووصاته لمن يقتدى به أن يقصر الخطبة ويقل الكلام كما كان يقول لمن
يبعث بهم من الولاة.

ولا يفهم من هذا أن مقتضيات الكلام لم يكن لها أثر في اختلاف الوضع
أو اختلاف الموقف وهو يخاطب الدس، فقد كان عليه السلام يلاحظ هذا
الاختلاف ويعصيه حقه كما كان يفعل حين يتكلم على قوم وهو يحطّ في

الحرب أو يتكى على عصا وهو يخطب في العنات، وكان يبدو على وجهه ما يشعل بصدره إذا عصب أو أذر «فكان إذا خطب احمرت عيانه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش : صبحكم مساكم»...

أسلوب عصرى:

ولمن شاء أن يحسب أسلوب النبی -كتابة وخطاباً- أسلوباً عصرياً يقتدى به المعاصرون في زماننا هذا وفي كل زمان.. لأن الأسلوب الذي سخر من القطرة المستقيمة هو أسلوب عصرى في جميع العصور، ويحظى من يحسب الوصول بين الجمل شرطاً للكلام العربى القديم والفصل بينها علامة من علامات الأساليب المبتدعة في الزمن الأخير، ويخطئ كذلك من يحسب قبول كلام لإشارات الترقيم علامة أخرى من علامات هذه الأساليب فإنك الحديث الذي يقساه أنفاً وهو مثل من أمثلة كثار حيث يقول عليه السلام «ما نال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله؟ ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، وإن كان مائة شرط : قضاء الله حق، وشرط الله أوثق، وإما الرلاء لمن أعتق».

هذا الحديث رضى البلاغة لعربية في وصله وفصله، ورضى الأسلوب لعصرى في إشارات ترقيمه، وآية على خطأ الذين يهرقون بين شروط البلاغة لعربية ذلك النحو من التفريق.

رأى النبی في الشعر:

وقد نقلت إلينا تعقيبات معدودة عن رأى النبى في الشعر والشعراء لا تدخل في النقد الفنى وتدخل في كلام الأنبياء الذين يقسمون الكلام بقيس الحير والمصلاخ والمطابقه لشعتر الدين وسنى الصدق والفضيلة ومنها قوله: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد . «ألا كل شيء ما خلا الله باطل». وقوله عن امرئ القيس إبه صاحب لواء الشعراء إلى انذار، وإنه كان يتمثل بشعرات من أبيات يبدل وزنها كنما أمكن تبديله مع بقاء المعنى المقصود، فكان يقول مثلاً «ويأتبك بالأخبار من لم يرود» لأنها لا تقبل التبديل مع بقاء

المعنى، ولكنه إذا نطق بقول سحيم عبد بنى الحساس «كفى الشيب والإسلام لمرء ناهياً» قدم كلمة الإسلام فقال «كفى الإسلام والشيب لمرء ناهياً» لينفى ما استطاع أنه شاء من ينظم القصيد وإن سور القرآن قصائد مريلات كما رعم المشركون.

وقد استحسن ما قيل من الشعر في النصح عن إسلام والذود عنه وعن الله، فكانت آراء هذه وشبهاتها آراء الأنبياء فيما يحمدون من كلام، لأنهم قد بحثوا لتعليم الناس دروس الخير والإصلاح، ولم يبعثوا ليلقوهم دروسهم في قواعد النقد والإيشاء.

جوامع الكلم:

إلا أن الإيلاغ أقوى الإيلاغ في كلام النبي هو اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصير، بل اجتماع العلوم الواقية في بضع كلمات وقد يبسطها الشارحون في محلدات.

ومن أمثلة ذلك علم السلوك في الدنيا والدين، وقد جمعه كله في أقل من سطرين قصيرين من قوله «احرث لدياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

ومن أمثلة علم السياسة الذي اجتمع كله في قوله «كما تكونوا يول عليكم»، فأى قاعدة من القواعد لأصلية في سياسة الأمم لا تتطوى بين هذه الكلمات؟..

سطوى فيها أن الأمم مسئولة عن حكوماتها، لا يعفها من تسعة ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل أو عذر بالإكراه، لأن الجهل جهل لدى تعاف عليه، والإكراه ضعفها الذي تلقى جراءه.

وينطوى فيها أن العبرة بأحلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التي تعسها الحكومة، فلا سبيل إلى الاستعداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم بتقيد فيها الحاكم بتقيد القوانين، ولا سبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية ولو بتقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال.

وينطوى فيها أن الولاية تنع تابع وليست بأمر أصيل، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وأخرى ألا يغير الوالى قوم حتى يغيروا هم قدر ذلك.

وينطوى فيها أن « لامة مصدر السلطات» على حد التعبير الحديث.
وينطوى فيها أن الأمة تستحق الحكم الذى تصبر عليه ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال.

وذلك هو الإبلاغ الذى ينفذ فى وجهاته كل نماذ.
ويلحق بهذا فى العلم بالتنوعات قوله عليه السلام: «أشد لباس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل»

فإنما زيا الإنسانية واجبات وأعباء وليست بالمتع والأرياء، وعلم الإنسان بالحر والشر يفرض عليه الفرائض التى يبتلى بها، ولا يهنئه بالراحة التى يصبو إليها وهو محسوب عليه وكذلك دكاؤه محسوب عليه.

وأمثل هذه الأحاديث فى أصول السياسة والأخلاق والاجتماع مما لا يتناوله الإحصاء فى هذا المقام.

كان محمد فصيح اللغة فصيح اللسان فصيح الأداء.
وكان بليغاً مبلغاً على أسلس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية، وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين، بل قنوه المرسلين.

محمد الصديق



عطوف ودود:

إذا كان الرجل محباً للناس، أهلاً لحبهم إياه، فقد تمت له أداة الصداقة من طرفيها..

وإنما تتم له أداة الصداقة بمقدار ما ورق من سعة العاطفة الإنسانية ومن سلامة النوق، ومتانة الخلق، وطبيعة الرقاء.

فلا يكفي أن يحب الناس ليحبوه. لأنه قد يحبهم وفي نوقه نقص ينفرهم منه ويزهدهم في حبه.

ولا يكفي أن يكون محباً سليم النوق ليبلغ من الصداقة مبلغها فقد يكون محباً محبواً حسن النوق ثم يكون نصيبه من الخلق المتين والطبع الوهمي نزرأً ضعيفاً لا تدوم عليه صداقة، ولا تستقر عليه علاقة.

إنما تتم أداة الصداقة بالعاطفة الحية، والنوق السليم، والخلق المتين، وقد كان محمد في هذه الحصال جميعاً مثلاً عالياً بين صفوة خلق الله

كان عطوفاً يرأى من حوله ويودهم ويودهم لهم على المودة طول حياته، وإن تفاوت ما بينه وبينهم من سن وعرق ومقام.

كان هسياً في الثانية عشرة يوم سافر معه، فحنق به حتى أشفق العم أن يتركه وحده فاصطحبه في سفره.

وكان شيحاً قارب الستين يوم بكى على قبر أمه بكاء من لا ينسى.

وليس في سجل المودة الإنسانية أجمل ولا أكرم من حذنه على مرضعته حليمه ومن حقاوته بها وقد جاوز الأربعين، فيلقاها هاتفاً بها أمي! أمي! ويفرش لها رداءه ويمس ثديها بيده.. كأنه يذكر ما لذلك الثدي عليه من حميل، ويعطيها من الإبل وأشياء ما يعيها في اسنة الجدياء.

ولقد وفدت عليه هوازن وهي مهرومة في وقعة حين وهيها عم له من

الرصاعة.. لأجل هذا لعن من الرصاعة تشفع السبي إلى المسلمين أن يردو السبي من نساء وأبناء، واشترى السبي ممن أبوا رده إلا بمال.

وحضنته في طفولته جاريه عجماء فلم ينس لها مودتها بقية حياته، وشغلته أن تنعم بأحدة الزوجية . ما مشغل الأب من أمر مَناته ورحمه، فقال لأصحابه «من سره أن يتزوج امرأة من أهل الحنة فليتزوج أم أيمن .» وما زال يناديها يا أمه كلما رآها وتحدث إليها، وريب رآها في وقعة قتلى تدعو الله وهي لا تدري كيف تدعو ولكنها الأعجية. فلا تنسيه الوقعة لحازية أن يصغى إليها ويعطف عليها.

وكان هذا عطفه على كل ضعيف ولو لم يذكره بحيان الطفولة ورحم الرصاع، فما بهر حادماً ولا ضرب أحداً، وهل أس. «خدمت السبي عشرين سنين، فما قال لي أب قط، ولا قال لشيء صنعته لم صنعت؟.. ولا لشيء تركته: لم تركته؟».

وكان من أصحك الناس وأطيبهم نفساً، صغى القلب إذ، كره شيئاً روى ذلك في وجهه، وإذا رضى عرف من حوله رضاه.

وقد اتسع عطفه حتى بسطه للأحياء كافة ولم يقصره على ذوي الرحم من الناس ولا على الناس من غير ذوي الرحم فكرر يصغى الإباء للهرة لتشرب، وكان يواسي في موت طائر يلهو به أخو خادمه، وأوصى المسلمين «إذا ركبتم هذه الدواب فأعطوها حظها من التارل ولا تكوبوا عليها شياطين» وكرر الوصاية بها أن «تقوا الله في الهائم الممجنة فاركوها صالحة وكلوها صالحة».

وقال «إن لله غفر لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركي يلهث قد كاد يقتله العطش، فرعت خصرها فأوثقت به حمارها، فترعت له من الماء فعمر لها بذلك»..

وقال في هذا المعنى: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

لا بل شمل عطفه الأحياء والجسد كأنه من الأحياء، فكانت له قصعة بفال

لها العراء، وكان له سيف محلي يسمى ذا الفقار، وكانت له درع موشحة
يتحاشى تسمى ذات الفضول، وكان له سرج يسمى الداج ويساط يسمى الكر
وركة تسمى الصابر، ومراة تسمى المدلة، ومقراض يسمى الجامع، وفصيب
يسمى المشوق..

وهي تسمية تلك الأشياء بالأسماء معنى الألفة التي تجعلها أشبه بالأحياء
المعروفين من لهم السمات والعناوين. كأن لها «شخصية» مغربة تعبرها بين
مثيلاتها، كما يميز الأحناب بالوجوه والملامح وبالكنى والألقاب.

ذو ذوق سليم:

هذه العاطفة الإنسانية التي رحمت حتى شملت كل ما أحاطت به وأحاط
بها، لم تكن هي كل أداة الصداقة في تلك النفس الطوية، بل كان معها ذوق
سليم يضارعها رفعة ونبلًا ويتمثل فيها يرجع إلى علاقات النبي بالناس - في
رعاية شعورهم أم رعاية وأدله على الكرم والجود..

«كان إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه قام معه، فلم ينصرف حتى يكون
الرجل هو الذي ينصرف عنه. وإذا لمعه أحد من أصحابه فتناول يده باوله إياها
فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده منه.»
«وكان إذا ودع رجلاً أخذ بيده فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذي يدع
يده.»

«وكان أرحم الناس بالصبيان والعيال».. «وإذا قدم من سفر تلقى بصبيان
أهل بيته.»

«وكان أشد حياء من العدراء في خدرها، وأصبر الناس على أقدار
الناس». يحفظ مغيبهم كما يحفظ محضرتهم ويقول لصاحبه «من اطلع في
كتاب أخيه بغير أمره فكأنما اطلع في النار».

ومع العاطفة الإنسانية والنوى السليم والأدب الكريم سمعت حميل ونظافة
مالغة وحرص على أن يراء للناس في أجمل مراه.

ومع هذا كله أمانة يثق بها العدو فما بال الصديق؟.. وحسبك من ثقة الناس

فه ما أودعوه من أمدت وهم يناميونه العداء، فلم يخرج للهجرة وهو مهدد
فى سره حتى رد الأمانات إلى أصحابها، وقد يكون فى ردها ما يبيهم إلى
خروجه ويأخذ عليه سبيل الصلة، وهذا إلى اشتهاره بالأمانة هى صباه حتى
سمى بالأمين قبل أن يتجرد لدعوة تنبى لداعيها أمثال هذه الصفات.

أصدقائه المحبون:

كل هذه المزايا النفسية -بل بعض هذه المزايا النفسية- خلق أن سم
لصاحبه أدة الصدقه أوهى تمام، وأن يجعله محباً لمن حوله حديراً منهم
بأحسن حب وولاء فلم يعرف فى تريح العظمة -لا بين الأنبياء ولا غير
الأنبياء- إنسان ظفر بخبة من الصداقات على اختلاف الأقدار والنسب
والأمزجة والأجناس كالتي ظفر بها محمد، ولم يعرف عن إنسان أنه أحيط
من قلوب الصغف والأقوياء بما يشبه الحب الذى أحيط به هذا القلب
الكبير.

تقدم فى بعض فصول هذا الكتاب حديث زيد بن حارثة الذى خطف من أهله
وهو صغير ثم اهتدى إليه أبوه واهتدى هو إلى أسه على لطفه الشوق بعد يأس
طويل، فلما وجب أن يختار بين الرجعة إلى آله وبين البقاء مع سيده «محمد»
اختار البقاء مع السيد على الرجعة مع الوالد، وشق عليه أن يحتجب عن ذلك
القلب الذى عمره بحبه ومواساته، وهو ضعيف شريد لا يرى ذويه ولا يدري من
هم نوره.

وكن لا يغنى من لازموه أن يلزموه فى الصياه حتى بثقوا من ملارمنهم إياه
بعد لمات فصعف مولاه ثويان وبحل جسمه وألح عليه الحزن فى ليلة ومبار،
فلما سأل السيد العطوف يستفسره علة حزنه وبحوله قال فى طهارة الأنوار
«إنى إذا لم أرك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة، فذكرت الأحره حيث لا
أراك هناك لآنى إن دخلت الجنة فأنت تكون فى درجات النبين فلا أراك»
ورويت هذه القصة فى أسباب نزول الآية الكريمة ﴿ومن يطع الله والرَسُولَ

وأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴿النساء: ٦٩﴾

وأدرك الموت بلالاً فأحاط به أهله يصيحون واكرياه وهو يجيبهم «واطرباه عداً أبقى الأحبة محمداً وصحبه...».

وقد عينا مما تقدم بحب الصداقة دبر الإنسان والإنسان لأننا لم نقصد حب المؤمن لتبنيه في هذا الباب فقد بلغ من امتلاء قلوب المسلمين ولمسلمات بهذا الحب أن المرأة كانت تسمع أنباء المعركة فينعى إليها خاصة أهلها وهي تسترجع وتعرض عن هذا لتسأل عن النبي ونهتם سلامته قبل اهتمامها سلامة الإخوة وبنى الأعمام.

إلا أننا عينا محبة الصداقة في هذا الباب لأنها هي المحبة التي جعلت كثيراً من الناس يؤمنون بمحمد لمحبتهم إياه واطمئنانهم إليه، فكانت سابقة في قلوبهم وأرواحهم لحب العقيدة والإيمان.

عظمة العظماة:

إن عطف العظم على الصغير حتى يستحق منه هذا الحب لفصيلة يشرف بها مقام العظيم في نظر بني الإنسان.

ولكن قد يقال إن استحقاق العظيم أن يحبه العظماة لأشرف من ذلك رتبة وأدل على حظه الجليل من فضائل التفوق والرجحان.. وهذا صحيح لا ريب فيه..

وهنا أيضاً قد تمت لمحمد معجزة التي لم يصارعه فيها أحد من ذوي الصدقات البادرة .

فأحدثت به نحية من ذوي الأقدار تجمع بين عظمه بحسب وعظمة الثروة وعظمة الرأى وعظمة الهمة، وكل منهم نوحاً في عظمته تقوم عليه دولة وتنهض به أمة، كما أثبت التاريخ من سير أبي بكر وعمر، وحالد، وأسامة، وابن العاص، والزبير، وطلحة، وسائر الصحابة الأولين..

وربما عظم الرجل في منزلة من المرائي فأحاط به لأصدفاء والمريدين من التبعين في تلك المزية كما أحاط الحكماء بسقراط والقادة ببائليون.

بل ربما أحاط النصالجون بالنبي العظيم كما أحاط الحواريون بالمسيح عليه السلام وكلهم من معدن واحد وبيئة متقاربة.

أما عظمة العظام فهي تلك التي تجذب إليها الأصحاب الباقين من كل معدن وكل طراز، وهي التي يقبل في حبها رجال بينهم من التفלות مثل ما بين أبي بكر وعلي، وبين عمر وعثمان، وبين خالد ومعاذ، وبين أسامة وابن العاص كلهم عظم وكلهم مع ذلك مخالف في وصف العظمة لسوءه.

تلك هي العظمة التي اتسعت أفاقها وتعددت نواحيها حتى أصبحت فيها ناحية مفدية لكل خلق، وصبح فيها قطب جاذب لكل معدن. وأصبحت تجمع إليها أبأس والنعم، والصلبة والصراخنة والألمعية ولاجهاد، وحكمة السن وهمية الشباب

تلك هي بلا ريب عظمة العظام، ومعجزة الإعجاز في باب الصداقات، وما استحقها محمد إلا بنفس غنيت بالحب وحصنت له حتى أعطت كل محب لها كفاء ما يعطيها، مودة بمودة وصفاء بصفاء، وعليها المريد من فضل التفاوت في الأقدار.

ولقد كان صاحب الفضل على أصفياه جميعاً بما هداهم إليه من نور العقل ونور البصيرة، وهما أشرف من نور البصر لأنه نعمة يشترك فيها الإنسان والعجماء، ونور العقل ونور البصيرة نعمتان يختص بهما الإنسان.

ومع هذا كان يذكر فضلهم ويشيد بذكرهم كما قال عن أبي بكر «ما أحد أعظم عندي بدءاً من أبي بكر؛ وإساني نفسه وماله وأكحني ابنته»، وكما قال عن أبي بكر وعمر «أبو بكر وعمر ممي بمزلة السمع والبصر»، وكما قال عن علي «علي أحق في الدنيا والآخرة»، وكما قال عن بعض أصحابه «إن الله تعالى أمرني بحب أربعة وأحرني أنه يحبهم، علي منهم، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان»، وكما قال عن الأنصار جميعاً وهو في مرض الموت «استوصوا

بالأبصار خيراً . إنهم عيبني التي أوتيت إليهم ، وأحسوا إلى محسنهم وتجاوزوا
عن سيئهم » . وغير ذلك كثير عن الصحابة كافة وعن بعضهم مذكورين
باسمائهم .

على أنك تلمس دلائل هذا الفؤاد الرحب وهذا العطف الإنساني الشامل في
معاملته لأعدائه وشائئيه فضلاً عن معاملته للأصفياء ، ومن ليس بيدهم وبينه
عداء ولا صفاء...

فما ثار من أحد لأنه أساء إليه في شخصه ، وقد عفا عن رجل هم بقتله وهو
نائم ورفع السيف تسهوى به فسقط من يده على كره منه ، وما حارب قط أحد ،
كان في وسعه أن يسأله ويحاسنه ويتقى شره .

ومعاملته لعبد الله بن أبي الذي كان المسلمون يسمونه رأس النفاق مثل من
أمته الإحصاء والصفح الجميل فقد عاهد وعذر ثم عاهد وعذر وعاش ما عاش
يكيد للنبي عليه السلام في سره ويمالي عليه أعداءه ، وشاع أن النبي عليه
السلام قضى بقتله فتقدم ابنه وقال له « يا رسول الله ، إنه يعني أمث قريد قتل
عبد الله بن أبي فيما طلعت عنه ، وإن كنت فهالاً فمرني به فأنا أحمل إليك
رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني ، وإنني
لأحشى أن تأمر به غبري فيقتله فلا تدعى نفسي أنظر إلى قاتل أبي عشي في
البس فأقتله فأقتل رجلاً مؤمناً بكفر فأدخل النار » .

فأبى النبي أن يقتله وأثر الرفق به . وزاد في إعصائه وإجمانه فكافأ الولد
حير مكافأه على خنوص ننته وإبشاره البر بدينه على إبر ياأبيه فاعطاه قميصه
الصاهر يكفن به أباه ، وصلى عليه ميتاً ووقف على قبره حتى فرغ من دفنه ، وقد
حاول عمر أن يشيه عن اتصاله على ذلك العدو الذي آذاه جهد الإبداء فنذكر
الآية ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ
لَهُمْ... ﴾ [التوبة ٨٠]

فقال « لو أعلم أبي إن ردت على السبعين عمر له ردت » .

تهمة باطلة:

هذه النفس المطبوعة على الصدقة والرحمة والسماحة ما أعجب اتهامها بالفسوة على السنة بعض المؤرخين الأوربيين!..

ما أعجب اتهامها بالفسوة لأنها دنت أناساً بالموت كما بدين القاضي مجرمًا بذنبه وهو من أرحم الرحماء!..

ما أعجبهم إذ يذكرون العقوبة ويسورون الذنب الذي استوجب العقوبة كما يستوجب السبب السبحة.

وأى ذنب؟.. ذنب لو قوبل به غير محمد لأراى فيه أنهاراً من الدماء وله حجة من سلطان الدنيا والآخرة

فلا نذكر استهراء المشركين به وإعناتهم إياه وإلقاءهم عليه القدر والحجارة وإتثمارهم بحياته وحياة أصحابه وإخراجهم المسلمين من ديارهم إلى أقصى الدار، ولا نذكر اعتداء وإعاظه والاستثارة لغير جريرة إلا أنهم دعوا إلى عبادة الله والتحلى بمكارم الأخلاق وترك عبادة الأصنام وبرك لرديله.

لا نذكر شيئاً من هذا فهو أطول من أن يحصيه هذا الكتاب، ولكننا نذكر حادثاً واحداً تجمع فيه من اللوم ما تغرق في كثير غيره، وذلك حادث الرسل الأربعين -وقيل السبعين- الذين قتلوا في بئر معونة ولا ذنب لهم إلا أنهم ذهبوا تلبية لدعوة الداعين ليعلموا من يشهد علم القرآن ولدين غير مغبوب عليه.

فماذا كانت مؤل الحصار صانعة بالقائدين العاديين لو كان هؤلاء الأربعون أو السبعون مبشرين بالدين المسيحي قتلوا في قبيلة من الهجج لذين يتكلمون الآدميين ومن حقهم أن يعذبوا كما تعذب الوحوش.. بل بقي من أبناء القبيلة من يروى أثناء المقتلة، فقد يقال إن القوم لرحماء في العقاب.

ولم يكن حادث بئر معونة بالحادث الوحيد من حوادث العذر بالرسل الأبرياء، فنعد بحكم هذا الفصل عن الصدقة بغير ما يحتم به حين تشير إلى غير قبيلة هذيل بالرسل الستة الذين ذهبوا إليهم ليعلموا من شاء أن يتعلم أحكام الدين وهو آمن في داره، لا إكراه له ولا نهي عليه. فقتلوا جميعاً وجيء بأحد هم زيد بن الدثنة أسيراً لباع.. فاشتراه صفوان بن أمية ليقبله بإبيه،

ودصب للقتل فسأله أبو سفيان مسهرئاً «أشدك الله يا ريد . أتحب أن محمداً الآن عنديا في مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك؟» فأجابه ريد : «والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤديه وأنا جالس في أهلي . . .» .

فصاح أبو سفيان دهشاً «ما رأيت من الناس أحداً يحبه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمداً . . .» .

من فلة كهذه تعلم مدى ما استحقه محمد من حب الأصدقاء، ومدى ما استحقه أعداؤه من جزاء، فقد أحب أصدقاءه وأحبوه لأنه طبع على لصداقة. أما أعداؤه فقد لقوا جزاءهم لأنهم هم طبعوا على العدا، والاعتداء

محمد الرئيس



الرئيس الصديق:

من الحسن أن نكتب عن محمد الرئيس بعد كتابتنا عن محمد الصديق.. لأنه هو قد جعل الرئاسة معنى الصداقة المختارة، فمحمد الرئيس هو الصديق الأكبر لرؤوسيه، مع استطاعته أن يعتز بكل ذريعة من ذرائع السطان .

فهناك الحكم بسطان الدنيا .

وهناك الحكم بسطان الآخرة .

وهناك الحكم بسطان الكفاءة والمهابة .

وكل أولئك كان لـ محمد الحق الأول فيه، كان له من سلطان الدنيا كل ما للأمير اسطلق الأيدي في رعاياه، وكان له من سلطان الآخرة كل ما للنبى الذى يعلم من الغيب ما ليس بعلم المحكومين.. وكان له من سلطان الكفاءة والمهابة ما يعترف به بين أتباعه أكفأ كفء وأوقر مهيب .

ولكنه لم يشأ إلا أن يكون الرئيس الأكبر، بسطان الصديق الأكبر، بسطان الحب والرصا والاختيار .

فكان أكثر رجل مشاورة للرجال، وكان حب التابعين شرطاً عنده من شروط الإمامة فى الحكم بل فى العادة فالإمام المكروه لا يرضى له صلاه .

وكان يدين نفسه بما يدين به أصغر أتباعه.. فروى أنه كان فى سفر وأمر أصحابه بإصلاح شاة، فقال رجل : يا رسول الله! على ذبحها وقال آخر : وعلى سلخها وقال آخر : على طبخها .. فقال عليه السلام : وعلى جمع الخطب .

فقالوا : يا رسول الله تكفيك العمل قال : علمت أنكم تكفوننى ، ولكن أكره أن أتميز عليكم ، إن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه مميّراً بين أصحابه .

وأنى، والمسلمون يعملون فى حفر الخندق حول المدينة، إلا أن يعمل معهم

بيديه. ولولا أنها سنة حميدة يستنتها للرؤساء في حمل التكليف لأعفى نفسه من ذلك العمل وأعفاه المسلمون منه شاكرين.

وجعل قضاء حوائج الناس أمناً من عذاب الله أو كما قال: «إن لله تعالى عبداً اختصهم بحوائج الناس، يفزع إليهم الناس في حوائجهم. أولئك الأميون من عذاب الله».

الشرع له الظاهر:

وقد كان أعلم الناس أن الأعمال بالنيات ولكنه علم كذلك «إن الأمير إذا ابتغى الريعة في الناس أفسدهم، هوكل الضمانر إلى أصحابها وإلى الله، وحاسب الناس بما يجدي فيه الحساب».

سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم قائلاً «إنما أنا بشر. وإنه يأتيني الخصم فبعل معصكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق، فأقصي له بذلك فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها». واليوم يكثر اللاغطون بحرية الفكر ويحسبون أنها كشف من كشوف الثورة لفرنسية وما بعدها، ويحرمون على الحاكم أن يؤاخذ الناس بما فكروا به ما لم يتكلموا أو يعملوا ويكن في كلامهم وعملهم ما يخالف الشريعة.

فهذا الذي يحسبونه كشفاً من كشوف العصر الأخير قد جرى عليه حكم النبي قبل أربعة عشر قرناً، وشرعه لأمته في أحاديثه حيث قال عليه السلام «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به، أو تعمل به».

الرحمة فوق العدل:

وزعموا كذلك أن تقديم الرحمة على العدل في تطبيق الشريعة دعوة من دعوات المصلحين المحدثين لم يسبقوا إليها، وهي هي دعوة النبي العربي التي كررها ولم يدع قط، إلى غيرها فقال «إن الله تعالى لا يخلق الخلق كتب بيده على نفسه أن رحمته تغلب غضبي» وقال «إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطى على العنف» وقال «إن الله تعالى لم يعثنى معتاً ولا

متعشاً ولكن بعشى معلماً ميسراً» وروى عنه غير صاحب من أصحابه أنه ما خير بين حكمين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن فيه خرق للدين.

بينة الضعفاء:

وكان يوصي بالضعفاء، ويقول لصاحبه «اغشني الضعفاء فإنما ترزقون وتصرون بضعمائكم» ويدم الترفع على الخدم والفقراء، «فما استكبر من أكل مع خادمه وركب الخمار بالأسواق واعتقل الشاة وحسبها». لكنه مع الرحمة بالصغير لا ينسى حق الكبير «من لم يرحم صغيراً ويعرف حق كبيرنا فليس منا».

إد ليس الإنصاف حراماً على الكبراء حلالاً لمن صغر دون من كبير فلكل حق ولكل إنصاف وإنزال الناس منازلهم كما أمر قومه هو خير شعار تستقيم عليه الحكومة، وتتعكس أمور الأمم بانعكاسه.

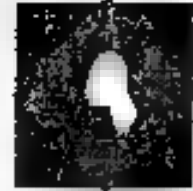
أهل الكفاءة لا أهل الثقة:

وكان البى الرئيس يعلم أن الرئاسة لجميع الرؤوسين وليست للموافقين منهم نور المخالفين، فيأمر قومه أن «انقروا دعوة المظلوم وإن كان كافراً فإنها ليس دونه حجاب».

وإذا قال هذا رئيس ونسى فإنها لأولى الناس أن يتبعها الرؤساء كافة، لأنهم لم يبعثوا لنشر الدين ومحو الكفر كما بعث الأنبياء.

لقد كانت سنة الرئاسة عند محمد هي سنة الصداقة.. فلو استعنى حكم عن الشريعة لاستعنى عنها حكم هذا الرئيس الذى جاء بالشريعة لجميع متبعيه.

الزواج



حق المرأة:

الكلام عن زوج يسبب عن الكلام عن مكانة امرأة عند رجل، وعن مكانة النساء عامة عند الرجال عامة

وإنما تعرف مكانة المرأة منى وصلت إليها بفصل محمد ودينه، متى عرفت مكانة المرأة التي استقرت عليها في الجاهلية، ومكانة المرأة التي استقرت عليها في عصره - وبعد عصره - بين أمم أخرى غير الأمة العربية..

وقياسان اثنان كافيان لبيان الفارق البعيد بين ما كانت عليه المرأة في الجاهلية وما صارت إليه بعد رسالة محمد.

كانت مباحاً يورث ويقسم بقسيم السوائم بين الوارثين، فأصبحت بفصل الإسلام ونسبه صاحبة حق مشروع، ترث وتورث ولا يمنعها الزوج أن تتصرف بمالها وهي في عصمته كما نشاء.

وكانت وصمة تدف في مهدها فراراً من عار وجودها، أو عناً تدف في مهدها فراراً من نفقة طعامها، فأصبحت إنساناً مرعى الحياة، ينال العقاب من ينالها بمكروه. ولم تكن في البلاد الأخرى بأسعد حظاً منها في البلاد العربية

فلا نذكر شرائع الرومان واستعبادها النساء. ولا نذكر المنتطسين في صدر لمسيحية وتسجيلهم عندها انجاسة وتحريدهم إياها من الزوج وكفى أن يذكر عصر الفروسية الذي قيل فيه به عصر المرأة الذهبي بين لأمم الأوربية، وإن الفرس كانوا يعدون النساء بالدم والمال..

الفروسية عصر الحصان لا المرأة:

فهذا العصر كان كما قال الدارسون له عصر الحصان، قيل أن يكون عصر المرأة أو عصر «السيدة المفداة».

وقد أجمله حون لا يجنون دافيز صاحب « لتاريخ الموجر للنساء »^(١) فقال.
« إن عصر الفروسية كان معروفاً بم لحظ فيه من مقدان لشبان على الجملة
الاهتمام بالجس الآخر. ولعلنا نقل من الدهشة لذلك لو أسا وعيبا كلمة
الفروسية وذكرنا أنها لم تكن ذات شأن بالسيدات كما كانت ذات شأن بالخيال
على خلاف ما بروق الكثيرين أن يذكره، فعلمنا بلغ الاهتمام بالمرأة مبلغ
الاهتمام بالحصان في عصر الفروسية إلا على اعتبار أنها عنوان ضيعة».

إلى القارئ مصدثة من كتاب أعاسى الآداب والتحيث Chanson de Geste
يروى فيها أن ابنة أوسيس Aueis جاست في ناعتها ذات يوم فقير بها فتبان
هما جاران وجريت- وقال أحدهما «اطر، اطر يا جريت. وحق أبعراء
ما أجملها من فتاة؟ قم يزد صاحبه على أن قل. يا لهذا الجواد من مطلق
جميل!.. دور أن يلتفت بوجهه.. وعاد صاحبه يقول مرة أخرى: «ما أحسبني
رأيت قط فتاة بهذه الملاحه ما أجمل هاتين العينين السودوين!« واسطلقا
وجريت يقول له «ما أحسب أن حود قط يماثل هذا الجواد» وهي حادثة
صغيرة ولكنها واضحة الدلالة، إذ قلة الاهتمام تورث الارداء... والحق أن
عصر الفروسية يريتنا بعض الشاهد الوضحة على هذا الارداء... وإليك مثلاً
حادثة في الكتاب استقدم يروي فيها أن الملكة بلانشفور ذهبت إلى قرينها الملك
بين Pepin تسأله معونة أهل اللورين. فتصفي إليها الملك ثم استشاط غضباً
واظمها على أنفها بجمع يده فسقطت منه أربع قطرات من الدم وصاحت تقول.
«شكراً لك. إن أرضيال هذا فأعطني من يدك لظمة أخرى حين تشاء».

ولم تكن هذه حادثة مفردة لأن الكلمات على هذا النحو كثيراً ما تتكرر كأنها
صيغة محفوظة، وكأنما كانت النظمه بقبضة اليد جراء كل امرأة حسرت في
عهد الفروسية على أن تواجه زوجها بمشورة.

«... ومتى كانت المرأة ترف إلى زوجها عفو الساعة وكثيراً ما يرف إلى رجل
لم تره قبل ذلك، إم لتسهيل المصالحات الحربية والمدد العسكري، أو لتسهيل
صفقة من صفقات الضياع، ومتى كانت بعد زفافها إلى فارس محبون بالحرب
معطل لذكاء قد يكون هي معظم الأحوال من «الأميين» -عرضة للضرب كلما

واجهته بمخالفة، أترى سيدة القصر إدين واجدة لها رحمة أو ملأداً من حياه الشقاء أو من صحة قريين ليس لها بأهل؟».

وعصر أوربا الحديث؛

ولقد تقدم الرمن فى الغرب من العصور المظلمة إلى عصور العروسية إلى ما بعد من طلائع العصر الحديث ولما تبرح المرأة فى منزلة مسفة لا يفصل ما كانت عليه فى الجاهلية العربية، وقد تفضلها منزلة المرأة فى تلك الجاهلية .
ففى سنة ١٧٩٠، بيعت امرأة فى أسواق إنجلترا بشلسين لأنها ثقلت بتكاليف معيشتها على الكنيسة التى كانت تؤويها..

وبقيت المرأة إلى سنة ١٨٨٢، محرومة حقها الكامل فى ملك العقار وحرية المقاضاة.

وكان تعلم المرأة سبة تشمئز منها النساء قبل الرجال، فلما كانت إصابات بلا كويل معمم فى جامعة حيف سنة ١٨٤٩ - وهى أول طبسة فى العالم - كان النسوة المقيمات معها يقاطعنها ويأين أن يكلمنها، ويزوين ذبولهن من طريقها احقدراً لها كأنهن متحررات من نجاسة يتقين مساسها .

ولما اجتهد بعضهم فى إقامة معهد يعلم النساء الطب بمدينة فلادلفيا الأمريكية أعلنت الجماعة الطبية بالمدينة أنها تصادر كل طبيب يقبل التعليم بذلك المعهد وتصادر كل من يستشير أولئك الأطباء.

وهكذا تقدم الغرب إلى أوائل عصرنا الحديث ولم تتقدم المرأة فيه تقيماً يرفعها من مراغة الاستعداد التى استقرت فيها من قبل الجاهلية العربية.
فماذا صنع محمد؟ وماذا صنعت رسالة محمد؟

المرأة فى الإسلام؛

حكم واحد من أحكام القرآن الكريم أعطى المرأة من الحقوق كفاء

م مرض عليها ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة ٢٢٨]

وحكم آخر من أحكامه العالية، أمر المسلم بإحسان معاشرتها ولو مكروهة عبر ذات حطوة عند زوجها ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ لَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [نساء ١٩]

وأباح لها للدين في الجهد أن تكسب كما يكسب الرجال ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [نساء ٢٢]

ولم يفصل الرجل عنها إلا بما كلفه من واجب كعالبها ورقامة أوبها والسهر عنها . أما محمد فقد جعل خيار المسلمين خيارهم لنسائهم «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم».

وأمر بمدارة ضعفها ونقصها لأن «المرأة خلقت من ضلع لئلا تستقيم لك على طريقة ، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج ، وإن ذهبت تقبها كسرناها ، وكسرها طلاقها».

وأوجب على الرجل أن يتجمل لامرأته ويسود لها في المنظر الذي يروقهها، فقال عنه السلام مما قال في هذا المعنى وهو كثير: «اصلوا ثيابكم وخدوا من شعوركم واستاكروا وتزينوا وتنظفوا ، فإن بني إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فرتت نسائهم».

وأوجب على الرجل إذا خطب امرأة أن يطهرها على عيبه إن كان به عيب مستور «إذا خطب أحدكم المرأة وهو يخضب بالسواد فليعلمها أنه يخضب».

وسخ من رعية شعورها ومداراه حجلها الذي هطرت عليه أنه أوجب على الرجل أن يمتعها كما تمتعه لأنها لا تطيب لنفسها ما يطلبه الرجل منها «فإذا جامع أحدكم أهله فليصدقها ، ثم إذا قصى حاجته قبل أن تقصى حاجتها فلا يعجلها حتى تقصى حاجتها».

وكان تأديبه المسلمين في هذه الصلة عناية في الكياسة والرفق، فقال مما قال في هذا المعنى «إذا دخلت ليلاً فلا تدخل على أهلِكَ حتى تستنجد الخفية وتمشط الشعثة .. الكيس ، الكيس».

معاملته لزوجاته:

وإنما تلخص ما أوجبه النبي على المسلمين عامة في معاملاتهم لزوجاتهم، وهي ثون ما أوجبه على نفسه في معاملة زوجاته بكثير.

فكان يشفق أن يريه غير باسم في وجوههن، ويؤثرهن جميعاً في أصحاب والمساء، وإذا خلا بهن «كن ألين الناس ضحاكاً باسماً» كما قالت عائشة رضي الله عنها.

ولم يجعل من هبة السوة سداً رادعاً بينه وبين نسائه، بل أساهن يرفعه وإيتسه أنهن يخاطبن رسول الله في بعض الأحيان فكانت منهن من تقول له أمام أسها: «تكلم ولا نقل إلا حقاً...» ومن تراجع أو تعاصبه سبحانه بهارها ومن تلغ في الاجتراء عليه ما يسمع به رجل كعمر بن الخطاب في شدته، فيعجب له ويهم بأن يبض بأبسته حفصة لأنها تجدرى كما يجترى الزوجات الأخريات، وإذا رأى النبي عضاً كهذا من حراً ككف من غضب الأب وهال له: «ما لهذا دعوتك!»

وقد كان يتولى خدمة البيت معهن، أو كما قال: «خدمتك روحك صدقه». وكان يستعقر الله فيما لا يملك من التسوية بين إحداهن وسائرهن وهو ميل قلبه.

«الهم هـ» فسمى فيما أمك فلا تلمنى فيما تملك ولا أمك»

ولما أقعده مرض الوفاة أن يزورهن كل يوم كما عودهن، بعث إليهن فتتصف في سؤلهن: «أين أنا غداً؟ أين أنا غداً؟»، ليقلن: عند عائشة ويأذن له في الإقامة بمحبتها ولو أنه أحس لنفسه أن يقم حيث أقام وهو مريض لما كان في ذلك من حرج.

حديث الإفك:

والمعاملة الطيبة مع الرمن المويل خلق مابر بين الناس، ولكنه هي حالة الرضا خلق لا يشق فهمه على كثيرين.

إلا أن الخلق الذي يشق فهمه على الأكثرين هو طيب المعاملة عندما تتعرض الحياة الزوجية لأخطر ما يمسها من خطر وهو المساس بالوفاء، في هذه الحصلة تتسامى الحضارة الحديثة ما تنسامى فلا يحالها تحلم بمعاملة أطيّب ولا أكرم من المعاملة التي أثرت عن النبي في قصة عائشة بنت لصديق وهي أحلى نساته لديه، ونلخصها مم روته بلسانها إذ تقول - رضى الله عنها -

«... كان رسول الله إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين سائه، فأبها خرج سهمها خرج بها رسول الله معه وأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، ثم قفنا من الغزوة إلى أن دنونا من المدينة، فممت حين أذنوا بالرحيل فتمشيت حتى حاوزت الجيش وفضيت من شأني، وأقبلت إلى الرجل فلمت صدرى فإذا عقدي قد انقطع، فرجعت ألتمسه فحبسني ابتغاؤه. وأقبل إلى الرهط الذين كانوا يرحلون لي^(١) فحملوا هودجى وهم يحسبون أنى به وكانت النساء إذ ذاك خفائاً لم يهلن^(٢) ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه إذ كنت مع ذلك جارية حديثة السن.

ووجدت عقدي فجئت منازل الجيش وليس بها داع ولا مجيب، فنيمت منزلى الذى كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوننى فيرجعون إلى.

بينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فممت وكان صفوان بن المعطل السلمى قد عرس من وراء الجيش فأدلىج^(٣) فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم، فعردنى حين رأتى واسترجع فاستيقظت وعمرت وجهى بجلبابى، والله ما يكلمنى كلمة ولا سمعت به كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته وركبتها وانطلق بقودها حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا فى نحر الظهيرة^(٤).

مهلت من هلك فى شأني، وكان الذى تولى كبره عند الله من أنى بن سلول..

واشتكيت حين قدما المدينة شهراً والناس يفيضون فى قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك

٢- يثقلون اللحم والشحم

١- أى فى شدة الحر

١- أى يحسبون الرجل على البعير.

٢- سار اهر اللين.

... ويربى فى وجعى أبى لا أعرف من رسول الله النطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى . إنما يدخل رسول الله فيسلم ثم يقول : كيف تيكم؟ فذاك يربىنى ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نفهت وخرجت معى أم مسطح فس الماصع^(١) .

ثم عدنا فعمرت أم مسطح فى مرطها ، فقالت : تمس مسطح!

قلت : بشى ما قلت! أتسيين رجلاً قد شهد بدرًا؟

قالت : أى هتاه^(٢)! أو لم تسمعى ما قال؟

قلت : وماذا قال؟

«وأحسرتنى بقول أهل الإنك ، فزددت مرضاً إلى مرضى ، فلما رجعت إلى بيتى فدخل على رسول الله فسلم . ثم قال : كيف تيكم؟ أمسأذنب أن أتى أبوى أريد أن أتيقن الخير من قلبيها ، فأذن لى

قالت أمى : يا بنية هونى عليك . فوالله لقى ما كانت امرأة قط وصيسته عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن عليها

قلت : سبحان الله! وقد تحدث الناس بهذا؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بوم .

ودعا رسول الله ﷺ على من أبى طالب وأسامة بن زيد يستشيرهما فى فراق أهله فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله بالذى يعلم من براعة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود ، وقال لرسول الله : هم أهلك ولا تعلم إلا خيراً .

وأما على بن أبى طالب فقال : لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير وإن تسأل اجارية تصدقك .

فدعا رسول الله بريرة يسألها . هل رأيت من شىء يربيك من عائشة؟

قالت : والذى بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قد أغصمه^(٣) عليها أكثر من أمها حاربه حديثه السن ثنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداحس^(٤) وتأكله .

١ - أماكن فى خلا المدينة، يجمع الناس فيها سكك .

٢ - كأنها تسمى عليها طبيعتها وقلة معرفتها بمكائد الناس

٣ - أعينه . ٤ - أى لحيون الذى يالف البيت .

. . . وبكى يومى ذلك لا يرفأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ثم مكيت ليلتى
المقبلة لا يرفأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، وأنواى يظان أن الكاء فالتق كدى . .
فبيتا حى على ذلك دخل رسول الله فسلم ثم جلس وتشهد ثم قال : أما
بعد يا عائشة وإنى قد بلغنى عك كذا وكذا . فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ،
وإن كنت أئمت بذنب فاستعفى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب
ثم تاب تاب الله عليه .

فلما قصى رسول الله مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه فطرة فقلت
لأبى . أجب عنى رسول الله ! فقال والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله .
فقدت لأمى : أجبى عى . فقالت كذلك ، والله ما أدرى ماذا أقول لرسول
الله

قلت - وأنا جارية حديثه السن لا أقرأ كثيراً من القرآن - : إنى والله لقد
عرفت أنكم سمعتم بهذا حتى استقر فى نفوسكم وصدقتم به ، فإن قلت لكم
إنى بريئة ، والله يعلم أنى بريئة ، لتصدقونى ، وإنى والله ما أجد لى ولكم مثلاً
إلا كما قال أبو يوسف : نصير جميل والله المستعان على ما تصفون .
ثم تحولت فاضطجعت على فراشى .

. . . . فوالله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى
أنزل الله - عز وجل - على نبيه ، فأحذه ما كان يأحذه من البرحاء عند
الوحي ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان^(١) من العرق فى اليوم الشاتى
« فلما سرى عن رسول الله وهو يصحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال -
أبشرى يا عائشة! . . أما الله فقد برأك .

قالت لى أمى : قومى إليه .

قلت والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله ، هو الذى أنزل براءتى . . وكان
أبو بكر ينفق على مسطح لقرايته منه وفقره . . فأقسم ألا تنفق عليه شيئاً أبداً .
فأنزل الله عز وجل . ﴿ رَأَى أَنَّهُ يُؤْتُوا أُولَىٰ انْقِرَابٍ ﴾ .
إلى قوله . ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ [النور ٢٢]

فقال أبو بكر . والله إني لأحب أن يعفر الله لي ، ورجع إلى مسطح القمه
التي كان ينمقها عليه .

تلك هي قصه التي عرفت بقصة إلفك كما رويها لنا السيدة عائشة -رضي
الله عنها- . وهي مسيار صادق يسير لنا أعوار المروءة وارتفق في معاملة لبي
لزوجته حيث لا رفق ولا مروءة عند الأكثرين . فليس النبي هب في حالة من
حالات الرضا التي تسلس الطباع ولا تستغرب معها المودة وصول الأناة . ولكنه
في حالة من تلك الحالات التي تثير احمية وبشير الحب وتثير البقمة وتثير في
النفس البشرية كل ساذجة تدعو إلى طيب المعاملة . فم يكن في هذه الحالة إلا
كرماً حالصاً بما سلك في أمر نفسه وفي أمر أهله وفي مربيته . ولم يدع
لحال من حالي الحضارة الحديثة مرتقى يتصلع إليه في جميع هذه أبعادي
سمع لبي حديثاً يلاك بين المنافقين ويسرى إلى المسلمين . بل إلى حاضرة
نويه الأقربين: حديثٌ سمعه رجل كعلي بن أبي طالب في بزه وكرم فحيزته فلا
يرى بعده حرجاً من الطلاق والنساء كثيرات

سمع النبي ذلك لحديث المريب فم يهله بغير بية ولم يرفعه بعبر بية .
وكن عليه أن يعود زوجه المريضة أو يجفوها إلى حين . فعاده . وبه من الرفق
والإنصاف ما يأتي عليه أن يفتحها في مرصها بما يخامر نفسه الكريمة . وبه
من المودة والترقب ما أبي عليه أن يغالها بما كان يغالها به والنفس صافية
كل الصفاء وظل يسأل عنها سؤال متعجب ينتصر أن تشفى وأن تأبى النية
فبشتد كل الشدة أو يرحم كل الرحمة . ولا يعجله لعط الناس أن يأخذ في هذا
الموقف الأليم بما توجهه الحميه وما توجهه المروءة في .

وسأل من ينبغي أن يسأل علياً وأسامه وهم بمقام ولديه . وبريرة الجارية
التي تعرف عائشة وتحلص لسيدها كما تحلص لسيدها . وضرة لعائشة
نفائسها وتكاد أن بصارعها في حصوتها لديه زينب بنت جحش التي كانت
أسرع من يقول لو علمت شيئاً يقل . فاستعانت بالله وقالت «أحمى سمى
وبصري . والله ما علمت إلا خيراً» .

واتصل الحديث بعائشة فاستأذنته في زيارة أهلها، وإن له أن يفتحها وقد وصل النبي إلى سمعها ولم يش له قبل ذلك وهو كاشم ما في فؤاده فدير على كتمه مخافة أن يؤذيها بغير حق وهي تشكو منها فافتحها لتبرئ نفسها أو يستعذر الله.

وغصبت غضب النريء اشكوك فيه، وإنها لريئة هي بظر كل منصف يفهم إن امرأة كعائشة لا تعرض نفسها لهذه الريبة أمام جيش، وهي وصح لسهار، ولغير ضرورة، ومع رحل من المسلمين سقى ما يتقيه المسلم في هذا المقام من عصب النبي وعصب المسلمين وعصب الله فقلت حظ تترفع عنها من هي أقل من عائشة مبيت ومرة وخفًا وألفة، فكيف بها في مكابها المعوم.

إلا أن النبي أراد لها البراعة أمام لحلق عامة وأمام نفسه المحبة، حذرًا أن تكون تبرئته يابها عن محبة وضعف لا عن تدب واستنطاق، فلما قصي كل حق وانتهى به الاستنطاق إلى الثقة كان قد وفي الكرم والجملة والإصاف والرحمة أجمعين.

نعم وفي الرحمة حتى باللاعطين المعجيين الذين ابدؤوا وأعانوا هي ذلك الحديث الحريب، وما أحد أرحم ممن يرحم المفتريين على سمعة أهله وهماة بيته وأمان سربه، ولا يعذر الدس أحداً كما يعدرون سيئاً مطاعاً ينال في عرضه فينال بالعقاب العدل من استحقوه

سماحة الكريم:

ولقد علمنا من رواية السيدة عائشة كما علمنا من روايات شتى أن عبد الله بن أبي بن سلول كان أكر اللاعطين حديث الإفك عن سوء نية وكيد مبيت للنبي ودينه، وكان هذا الرجل .. كما تقدم في بعض أصول هذا الكتاب بعيداً إلى المسلمين متهماً عندهم ينوحسون منه، ويسموه رأس المنافقين، ولا يكفون عن طلب دمه واستئذان النبي في قتله هما صر النبي لو خلى بين المسلمين وبينه يحاسبونه على قريته ويحاسبونه على كنده ويسقمون لعرض النبي منه ليأمنوا شره ويجعلوه عبرة لغيره؟

وإذا قيل إن عبد الله بن أبي كان من أصحاب العصيدة التي بحسب

حسابها وتنفي بر، درها، فعدا يقال في مسطح وهو مكحول أبى بكر وصيفته
الذى تأكل من ماله؟ ما الذى أنجاه من السخط والعقاب وكهر له نوام أسر
والمعوية لولا سماحة النبي وسماحة أبى بكر وسماحة، لفرأى

على أن العصبية اتى كان عبد الله بن أبى يلوز بها لم تكن لتحميه عقاب
النبي لو أراد عقاب ولو كان أضرم عقاب، مما من عصبية هي أقرب إلى رحم
لرجل وأولى بالود عنه من ولده المشهور بجره وقد أسلفنا أن ولد عبد الله قد
تطوع لقتله يوم قبل له إن النبي يهدر دمه ويقضى بموته..

إنما هي سماحة الكريم

إنما هي السماحة لتي شملت مسطحاً كما شملت كثير المنافقين، وخرجت
من حديث الإهت كله بالعفو عن جميع المسيئين مخلصين في الرأى وغير
مخلصين، وهي التي سبرت غوراً في قصة هذا الحديث فكتشفت عن طيب
معاملة للزوجات في أخرج الحالات، وثلك هي المعاملة الحسنة في مثلها لأعلى،
معاملة لا تتبدل بعد أيام وشهور بل تطول مدى السنين، وتطول مدى السنين
مع نساء مختلفات لا مع امرأة واحدة، وتطول في جميع الحالات ومساها حالة
الأم البالغ، ولا تنحصر في حالة الرضا والطمأنينة، وأقل من ذلك أممية
يتمناها الحائون بالوثام بين الأزواج في العصر الذى وصفوه بعصر المرأة،
لفرط ما أطيب فيه المطيبون من إكثار شأنها والدعوة إلى إصافها.

تعدد الزوجات:

هنا يعرض لنا الكلام عن تعدد زوجات النبي، وهو الهدف الثانى الذى يرميه
المشهورون بالإسلام، فيكثرون من ربه كلما تكلموا عن أخلاق محمد عليه
السلام وذكروا منها ما يزعموه مساعياً لشماتل الجوة، مخافاً لما ينبغي أن
يتصف به هداة الأرواح..

السيف والمرأة..

كانهم يريدون أن يجمعوا على لنى بين الاستسلام للعصب والاستسلام
للهوى، وكلاهما بعيد من صفات الأنساء..

أما السيف فقد أسلفنا الكلام فيه.

أما المرأة فالضفة فيها أصعب من الطقة في السيف على ما نراه، لأن الاستسلام للشهوة أحر شيء يخطر على بال الرجل المحقق - مسلماً كان أو غير مسلم - حين يبحث في عدد روحيات النبي، وهما يدل عليه ذلك لعدد، وفيما اقتضاه.

قال لنا بعض المستشرقين إن تسع زوجات لادين على فرط الميل لجسيه. قلنا إن لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية Undersexed لأنه لم يتزوج قط، فلا ينبغي أن تصف مصداً منه مفرط الجنسية Oversexed لأنه جمع بين تسع نساء.

ونحن قبل كل شيء لا نرى ضيراً على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمسحتها هذا سواء الفطرة لا غيب فيه، وما من فطره هي أعماق هي طبائع الأحياء عامة من فطرة الحنسين والتقاء الذكر والأنثى، فهي الغريزة التي تلهم الحي في كل طبقة من طبقات الحياة ما لا تلهمه غريزة أخرى. رأيت إلى السمك وهو يعبر الماء المالح في موسمه المعلوم يبطوى ألوفاً من الفراسخ ليصل إلى فرحه نهر عذب يجدد فيها نسله ثم يعود أدراجه.. رأيت إلى العصفور وهو يبستني عشه ويعود من هجرته إلى وطنه؟ رأيت إلى لرهز وهو يتفتح ليغري الطير والحل ينقل لقاحه؟ رأيت إلى سة الحساء في كل طبقة من طبقات الأحياء؟ ما هي سننها إن لم تكن هي سنة الألفة بين الحنسين؟ وأين يكون سواء الفطرة إن لم يكن على هذا السواء؟

فحب المرأة لا معاة فيه..

هذا هو سواء الفطرة لا مرا..

وإنما المعابة أن يطفى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه، وحتى يشعل المرء عن عرضه، وحتى يكلفه شططاً في طلائه فهو عند ذلك مسخ لعطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور في جميع الصباغ..

فمن الذي يعلم ما صنع النسي في حياته ثم نفع في روعه أن المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغير؟

مَنْ مِنْ بِنَاءِ التَّارِيخِ قَدْ بَنَى فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ تَارِيحًا أَعْظَمَ مِنْ تَارِيخِ
الدَّعْوَةِ الْحَمْدِيَّةِ وَالْأَمَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ؟

وَمَنْ ذَا الَّذِي يَقُولُ إِنَّ هَذَا عَمَلُ رَجُلٍ مُشْغُولٍ؟

عَمَ شُغْلُهُ أَمْرًا؟ وَمَنْ ذَا، بَقَرِغْ لِعَظَمِهِ مِنَ الْمُسْعَى تَنْلِغُ فِيهِ شَأْنُ مُحَمَّدٍ فِي مَسَاعَاهُ؟
فَإِنْ كَانَتْ عَظَمَةُ الرَّحْلِ قَدْ أُتَاحَتْ لَهُ أَنْ يُعْطَى الدَّعْوَةُ حَقَّهَا وَيُعْطَى الْمُرَآةُ
حَقَّهَا فَالْعَظَمَةُ وَجَدْنِ وَلَيْسَتْ بِتَقْصُصٍ، وَهَذَا الْإِسْتِيفَاءُ السَّلِيمُ كَمَالٌ وَلَيْسَ
بَعِيبٍ. وَرِسَالَةُ مُحَمَّدٍ إِذْنٌ فِي الرِّسَالَةِ الَّتِي يَتَلَقَّاها أُمَاسٌ خَلَقُوا لِلْحَيَاةِ وَلَمْ
يُحْبِقُوا بِأَبْذِينَ لَهَا وَلَا بِمَبْذِينَ مِنْهَا. فَلَيْسَتْ شَرِيعَةٌ هَوَاءٌ بِالشَّرِيعَةِ الْمَطْلُوبَةِ
فِيمَا يُخَاطَبُ بِهِ عَامَةُ النَّاسِ فِي عَامَةِ الْعَصْرِ.

وَأَعْجَبُ شَيْءٌ أَنْ يَقَالَ عَنِ النَّبِيِّ إِنَّهُ اسْتَسْلَمَ لِلنَّاسِ الْحَسَّ وَقَدْ أَوْشَكَ أَنْ يُطْلَقَ
نِسَاءَهُ أَوْ يُخَيَّرَهُنَّ فِي الطَّلَاقِ لِأَنَّهُنَّ طَلَبْنَ إِلَيْهِ لِمُرَدِّ مِنَ النِّعَةِ وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُهَا.
فَقَدْ شَكُوْنَ عَلَى فُخْرِهِنَّ بِالْإِتِّمَاءِ إِلَيْهِ - أَنَّهُنَّ لَا يَجْسُنَ نَصِيبَهُنَّ مِنَ النِّعَةِ
وَالرِّبَةِ، وَاجْتَمَعَتْ كَلِمَتُهُنَّ عَلَى الشُّكْوَى وَاشْتَدَدَتْ فِيهَا حَتَّى وَحَمَ النَّبِيُّ وَهَمَّ
بِتَسْرِيعِهِنَّ، أَوْ تَخْيِيرَهُنَّ بَيْنَ الصَّبْرِ عَلَى مَعِيشَتِهِنَّ وَالتَّسْرِيعِ.

وَذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ يَوْمَ «يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ فَوْجِدُ النَّاسِ جُلُوسًا لَا يُؤْذَنُ لِأَحَدٍ
مِنْهُمْ ثُمَّ دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ وَعَمَرَ مِنْ عِنْدِهِ، فَوَجَدَ النَّبِيَّ جَالِسًا وَحَوْلَهُ سِتَاوَةٌ وَاجِمًا
سَاكِنًا فَأَرَادَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا يَسْرِي عَنْهُ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ رَأَيْتَ
بِسَبِّ خَارِجَةٍ! سَأَلَنِي الْفَقْفَقَةُ فَقَمْتُ إِلَيْهَا فَوَجَّأْتُ عَنْهَا» فَضَحَكَ رَسُولُ اللَّهِ
وَقَالَ: «هَنْ حَوْلِي كَمَا تَرَى يَسْأَلُنَنِي الْفَقْفَقَةُ!». فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى عَائِشَةَ يَجَأُ عَنْهَا
وَقَامَ عُمَرُ إِلَى حَفْصَةَ يَجَأُ عَنْهَا وَيَقُولَانِ: «تَسْأَلُنِ رَسُولَ اللَّهِ مَا لَيْسَ عَنْده؟»

وَقُلْنَ: «وَاللَّهِ لَا نَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ شَيْئًا أَبَدًا لَيْسَ عَنْده» ثُمَّ اعْتَرَلَهُنَّ الرَّسُولُ
شَهْرًا أَوْ تِسْعَةً وَعَشْرِينَ يَوْمًا فَزَلَّتْ بَعْدَهَا الْآيَةُ الَّتِي فِيهَا التَّخْيِيرُ وَهِيَ: ﴿يَا
أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَرْوَا جُكَ إِنْ كُنْتُ تُرَدُّهُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَرِزْسُهَا فَمَعَالِيْنِ أُمْتَحَكُنْ
وَأُسْرَحَكُنْ صِرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُ تُرَدُّنَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْأَرْضُ الْآخِرَةُ فَإِنَّ اللَّهَ

أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٨، ٢٩)

فبدأ الرسول معائشة فقال لها : «يا عائشة! .. نبي أريد أن أعرض عليك أمراً أحب ألا تتمجلى فيه حتى تستشيرى أبويك . . » ،

قالت : «وما هو يا رسول الله؟» فتلا عليها الآية .

قالت : «أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ .. بل أختار الله برسوله والدار الآخرة . . » ثم خير نساءه كلهن فأجبن كما أجات عائشة ، وقعن بما هن فيه من معيشة كان كثير من زوجات المسلمين يظفرن بما هو أنعم منها
علام يدل هذا؟

نساء محمد يشكون قلة السفقة والزينة، ولو شاء لأغنى عليهن النعمة وأغرقهن في الحرير والذهب وأطايب الملذات.

أهذا فعل رجل يستسلم للذات حسه؟

أم كان يسيراً عليه أن يعرض لنفسه ولأهله من الأنفال والعدائم ما يرضيهم ولا يغضب المسلمين، وهم ساقنون أن إرادة الرسول من إرادة الله؟..

وماذا كلفه الاحتفاظ بالنساء حتى يقال إنه كان يفرط في ميله إلى النساء؟ هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سفته أو يخالف ما يحمد من سيرته أو يترخص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكرونه عليه؟

لم يكلفه شيئاً من ذلك، ولم يشغله عن جليل أعمامه وصغيرها، ولم نر هنا رجلاً تغلبه لذات الحس كما يزعم المشهورون، بل رأينا رجلاً يغلب تلك الملذات في طعامه ومعيشته وفي ميله إلى نساءه، فيحفظها بما يملك منها ولا يأن لها أن تسومه ضريبة مفروضة عليه، ولو كانت هذه الضريبة بسطة في العيش قد ينالها أصغر المسلمين، ولا شك في قدرة النبي عليها لو أراد.

رجل الجد والرصانة:

وهكذا نبحت عن الرجل الذي توهمه المشهورون من مؤرعي أوروبا فلا نرى إلا صورة من أعجب الصور التي تقع في وهم واهم.

نرى رجلاً كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك ويقنع مع هذا بمعيشة
الفقراء، ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه!

ويرى رجلاً تألّت عليه نساؤه لأنه لا يعطيهن الزينة التي يتحّطن بها لعينه،
ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه ..

ونرى رجلاً أثر معيشة الكفاف والقناعة على إرضاء نسائه بالتوسعة التي
كانت في وسعه، ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه! ..

ذاك كلام لو شاء المشهرون أن يرسلوه كلاماً مصححاً مستغرباً لأملحوا فيما
قالوه أحسن فلاح، أو لعله أقبح فلاح! ..

ويزيد في غرابته أن الرجل الذي توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولاً قبل
روجه ولا بعد رواجه فتحبط فيه الضنون ذلك الخطب الدريع.

فمحمد كان معروفاً بين الشباب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر ما يعرف
فتى من قريش وأهل مكة.

كان معروفاً من صباه إلى كهولته فلم يعرف عنه أنه استسلم للذات الحس
في ريعان صباه، ولم يسمع عنه أنه لها كما يلهو الفتيان حين كانت الجاهلية
تبيح ما لا يباح، بل عرف بالطهر والأمانة واشتهر بالجد والرصانة، وقام بالدعوة
بعدها فلم يقل أحد من شائنيه والباعين عليه والمنقذين وراءه عن أهون الهنات.
تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى الذي كان من شائنه مع النساء كيت وكيت
يدعوكم اليوم إلى الطهارة والعفة ونبذ الشهوات.. كلا . لم يقل أحد هذا قط من
شائنيه وهم عبيد لا يحصى ولو كان لقوله موضع لجرى على لسان ألف قائل.

ولما بنى بأولى زوجاته -خديجة- لم تكن لذات الحس هي التي سيطرت على
هذا الزواج، لأنه بنى بها وهي في نحر الأربعين وهو في نحر الخامسة
والعشرين. ويبقى على الخمسين وأوتى الفتح الميم وليس له من روجة غيرها
ولا من رغبة في الزواج بأخرى.

ولم يكن وماؤه لها بعية حياته وفاء لذات حس أو ذكري متاع جميل لأنه
فضلها على عائشة في صباها وهي أحب نسائه إليه، وكانت عائشة تعار منها
في قبرها فلم يكتفها قط أنه يفضلها عليها

قالت له مرة. هل كانت إلا هجورا بذلك الله خيراً منها ، فقال لها مغضبا
«لا والله ما أبدلني الله خيراً منها . أمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ
كذبني الناس وواستني عاهد إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون
غيرها من النساء».

فهذا أحب خديجة وومي لها وفضلها ولم يمع ذكراها من نفسه قط من
أعقبتها من الزوجات انفسات وفاء قلب وليست لذات حس ولا ذكرى متاع
جميل

أسباب تعدد زوجاته:

ولو كانت لذات لحس هي التي سيطرت على زواج النبي بعد وفاة خديجة
لكان الأحسنى بإرضاء هذه الملمات أن يجمع النبي إليه تسعاً من الفتيات
الأبكار اللاتي أشتهرن بفتنة الجمال في مكة والمدينة والجزيرة العربية.
فيسرعن إليه راصيات فخورات، وأولياء أمورهن أرضى منهن وأفجر بهذه
المصاهرة التي لا تعلموها مصاهرة.

لكنه لم يتزوج بكرة قط غير عائشة -رضي الله عنها-، ولم يكن رواجه بها
مقصوداً في بداية الأمر حتى رغبته فيه خولة بنت حكيم التي عرضت عنه
ازواج بعد وفاة خديجة.

قالت عائشة -رضي الله عنها- «لما توفيت خديجة قالت خولة بنت
حكيم امرأة عثمان بن مظعون للنبي . «أي رسول الله ! ألا تزوج؟»
قال : «هي؟»

قالت : «إن شئت بكرة وإن شئت ثيباً؟» ..

قال : «فمن البكرة؟» ..

قالت : «بنت أحب الناس إليك عائشة بنت أبي بكر» .

قال : «فمن الثيب؟» ..

قالت : «سودة بنت زمعة ؛ أمت بك واتعتك» .

ثم كانت مسودة هي أولى النساء اللاتي منى بهن بعد وفاة حديجة وكان زوجها الأول - ابن عمها - قد توفي بعد رجوعه من الهجرة إلى الحبشة وكانت هي من سبق النساء إلى الإسلام فامنت وهجرت أهلها ونجا بها زوجها إلى الحبشة فراراً من إيذاء المشركين له ولها فلما مات لم يبق لها إلا أن تعود إلى أهلها فغضبوا ونوذى، أو تتزوج بغير كفء أو مكفؤ لا يريدوها. فغضبها الغنى إليه حماية لها وتكليفاً لأعدائه من أهلها وكان غير هذا الزواج أولى به لو نظر إلى أدات حس وصل إلى متاع.

وكانت للنبي زوجة أخرى سميت بالوضاءة والفتة وهي زبيب بنت جحش ابنه عمته عليه السلام التي زوجها زيد بن حارثة فأمره وعلى بغير رضا منها، لأنها أنعت - وهي ما هي في الحسب والقراية من رسول الله - بزوجها علام عتيق هذه أيضاً لم يكن لذات الحس المزعومة سلطان في بناء النبي بها بعد بطلاق زيد إياها وتعذر التوفيق بينهما، ولو كان لذات الحس سلطان في هذا الزواج لكان أيسر شيء على النبي أن يتزوجها ابتداءً ولا يروصها على قبور زيد وهي بأنها فقد كانت ابنة عمته يراها من طفولتها ولا يفجئه من حسنها شيء كان يجهه يوم عرص عليها ريذاً وشدة عيها في قوله فلما تحافى الزوجان وتكررت شكوى زيد من إعراضها عنه ورفقها عليه وإغلاطها انقل له كان زواج النبي بها «حلاً لمشكلة» بيتية بين ربيب في منزلة الابن وابنة عمه أطاعته هي زواج لم يقرن بالتوفيق.

أما سائر زوجاته عليه السلام فما من واحدة مهن - رضي الله عنهن - إلا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة أو من المروعة والسوادة بون ما يهتد به المرجعون من لذات الحس المزعومة

فثم سلمة كانت كهلة مسنة يوم خطبها، كما قالت له معذرة إليه لإعفائه من تكليف نفسه أن يتزوجها خيراً لخاصته بعد موت زوجها عبد الله المخزومي من جرح أصابه في غزوه أحد، ولما برح بها لحزن لوفاه وسأف رسول الله قائلاً «سلى الله أن يؤجرك في مصبتك وأن يجمعك خيراً»

فقال «ومن يكون خيراً من أبي سلمة؟» فوجب على نفسه حبسها لأنها

نعلم أنه خير من أبي سلمة، ولأنه يعلم أن أبا بكر وعمر خطباها فترفقت في الاعتدار، وهما أعظم المسلمين قدراً بعد النبي عليه السلام.

وجويرية بنت الحارث سيد قومه كانت إحدى السبايا في غزوة بني المصطلق فتزوجها النبي ليعتقها ويحضر المسلمين على عتق أسراهم وسباياهم تفريجاً عنهم وتآلفاً لقلوبهم، فأسلموا جميعاً وحسن إسلامهم وخيرها أبوها بين العودة إليه والبقاء في حرم رسول الله فأختار البقاء في حرم رسول الله

وحفصة بنت عمر بن الخطاب مات زوجها فعرضها أبوها على أبي بكر فسكت، وعلى عثمان فسكت، وبث عمر أسفه للنبي فم يكن للنبي عليه السلام أن يرض على وليه وصديقه بالمصاهرة التي شرف بها أبا بكر من قبله، وقال: متزوج حفصة من هو خير من أبي بكر وعثمان.

ورملة بنت أبي سفيان تركت أباها لتسلم وتركت وطنها لتهاجر مع زوجها إلى الحبشة ثم تنصر زوجها وفارقها وهي غريبة هناك بغير عائل فأرسل النبي إلى النجاشي في طلبها ليعقدها من ضياع الغربة وضياع الأهل وصياع القرين. فكانت النجدة الإنسانية باعث هذا الزواج ولم يكن له باعث من المنعة والاستزادة من النساء، وكان للنبي مقصد جليل من وراء هذا الزواج الذي لم يفكر فيه حتى ألجأته النجدة إلى التفكير فيه، وهو أن يصل بينه وبين أبي سفيان بأصرة السبب، عسى أن يهديه ذلك إلى الدين، بما يعطف من قلبه ويرضي من كبريائه.

وكان عرار من دلوأ بعد عدة سنة أثنى عليه السلام في معاملة جميع الناس ولاسيما النساء اللاتي تنكسر قلوبهن في الذل بعد فقد الحماة والأقرباء، ولهذا خير صعبة الإسرا ببلعة سدة بني قريظة من أن يلصقها بأهلها وأن يعتقها ويتزوج بها، فأختارت لزواج منه عليه السلام، وآية الآيات في رعاية الشعور الإنساني أنه غلبه السلام أب صفيّة بلا لاً لأنه مر بها وبابنة عمها على قتلى اليهود فقال له معصباً «أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما؟» واحتقرتها زيتب فلقبتها يوماً باليهودية، فهجرت شهراً لا يكلمها لياخذ بذعر هذه الغريبة ويدفع عنها الضيم

تتكشف لنا مراجعة الحياة لروجة لمحمد عليه السلام عن هذه الأسباب وشبهاتها من دواعي اختياره لنسائه واستجماعه لهذا العدد من الزوجات في حين واحد..

ولا حرج -كلما أسلفنا على رجل قويم الفطرة أن يلتمس المتعة في زواجه، ولكن الذي حدث فعلاً أن المتعة لم تكن قط مقدمة في الاعتبار عند نظر النبي في اختيار واحدة من زوجاته قبل الدعوة أو بعدها، وفي إبان الشباب أو بعد تجاوز الكهولة.

وأخر صورة يتصورها المنصف هنا هي صورة رجل فرغ لذاته، وجلس ينتقى واحده بعد واحدة من الحسن على حسب ما يرهوه عندها من متاع، فإنما كان الاختيار كله على حسب حاجتهن إلى الإيواء الشريف أو على حسب المصلحة الكبرى التي تقضي باتصال الرحم بينه وبين سادات العرب وأساطين الجزيرة من أصدقائه وأعدائه، ولا استثناء في هذه الخصلة لزوجة واحدة بين جميع زوجاته حتى التي بنى بها فتاه مكرماً موسومة بالجمال، وهي السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق -رضي الله عنه -..

إلا أن المشهرين المتقولين نسوا كل حقيقة من حقائق هذه الحياة الزوجية التي سجلت لنا بأنيق تفصيلاتها ولم يذكروا إلا شيئاً واحداً حرفوه عن معناه ودلالته، ليفتروا على النبي ما طاب لهم أن يفتروه، وذلك أنه جمع في وقت واحد بين تسع زوجات.

نسوا أنه اتسم بالطهر والعفة في شبابه فم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق، في غير مشقة عندهم ولا معاية.

ونسوا أنه بقي إلى نحو الخامسة والعشرين لم يتعسف في طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تنسره لكل فتى وسيم حسب منظور إليه بين الأسر وبين الفتيات..

ونسوا أنه لما تزوج في تلك السن كان رواحه بسيدة في الأربعين اكتفى بها إلى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين.

ونسوا أنه اختار أحساباً في حاجة إلى التالف أو لرعاية ولم يحتر جمالاً
مطلوباً للمتاع..

ونسوا أن لرجل الذي وصفوه بم وصفوا من تغلب لدات الحس لم يكن
يشبع في بعض أيامه من خبز الشعير، ولم يحاور حبة القبابة قد لإرضاء
نفسه وإرضاء نفسه، ولو شاء لما كلفه إرضاء نفسه وإرضاء غير القبيل
بالمقاييس إلى ما في يديه.

سرا كل هذا، وهو ثابت في التاريخ ثبتت عدد النساء اللاتي جمع بينهن
عليه السلام.. فلماذا نسوه؟

نسوه لأنهم أرادوا أن يعيبوا وأن ينقلوا وأن يحرفوا عن الحقيقة، وقد
كانت رؤية الحقيقة 'سرا لهم من الإغضاء عنها، لو أنهم أرادوها وتعمدوا
نكرها ولم يتعمدوا سيانها

الوجهة الخلقية:

ونسنطرد إلى تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية فلا نطيل فيه،
لأننا نقصر هذا الكتاب على عقوبة محمد وما له اتصال بجوانب هذه العقوبة
في تعدد مناحيها ولم يرد به أن نتناول حكمته، تشريعية الإسلام في تفصيلها
ولا مسوعات الأصول الدينية على اختلافها.

ما أوجز ما نقوله في تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية أن السى
عليه السلام لم يجعله حسنة مطلوبة بذاتها أو مباحاً يختاره من يختاره وله
منكحة عنه، وإنما جعله ضرورة يعترف بها الرجل وتعترف بها الأمة في بعض
الأحوال لأنها خير من ضرورات ولن ينكر هذا إلا متعنت يصدم الحقائق
ويتجاهل المحسوس الماثل للعيان.

ففي حياة محمد الخاصة لا ينكر أحد أن بدءه بنسائه قد كان خيراً من
الإخلاء بينهن وبين التنايم والمدة والرحمة إلى الكفر والصلالة، وكان خيراً من
قطع تلك الأسرة التي وصلت بينه وبين البيوت والعشائر، فكان لها ما كان من
فضل في نعم الدين والتمدين به، وهي ضرورة يلج إلى الاعتراف بها كل

مسئول عن شؤون أمة بل هم تمارس الحياة الدنيا، وكل إمام عليم بطبائع الناس.

أما الضرورة الاجتماعية العامة فقد اعترفت بها الشرائع المدنية الحديثة جميعاً ثم حلت منها بإباحة الرمي وعلاج مشكله الزواج بحل خارج عن نطاق الزواج أو خارج عن نطاق البيت والأسرة. ولو اهتمت هذه الشرائع المدنية إلى حل خير من هذا لجاز لها أن تنكر تعدد الزوجات وينكر أنه ضرورة أكرم من ضرورات.

فلاشك أن الجمع بين المرأة لعقيم أو المرأة المريضة وبين غيرها أكرم لها وللمجتمع من تبذره هي معترك هذه الدنيا الضروس بغير ولد وبغير زوج وبغير عاصم، ثم هو أكرم للزوج نفسه وهو كائن حي يريد أن يصل ما بينه وبين الحياة بذرية صالحة هي العرض الأكرم من كل زوج، ولولاها لانتقض في المجتمع الإنساني أساس كل زوج.

ولاشك أن الجمع بين المرأة المزهود وبها وبين زوجة أخرى أكرم لها وأصلح من الجمع بينها وبين خلية أو عدة خليات.

ولاشك أن تسهيل الزواج وبخاصة في أوقات لصروب إلى يبقص فيها الرجال أكرم للمجتمع الإنساني وأصلح من تسهيل العلاقات الأخرى التي لا تنفع النوع ولا تنفع الأخلاق، ولا ترفع مكانة المرأة في عصمة وحل أو في متناول كثير من الرجال.

هذا شيء جائز.

بل هذا شيء أكثر من جائز، لأنه واقع لا محيد عنه ولا حصة منه، وعبر ملوم من بوجهه يحمل كرم من حلول شتى، بل اللوم عليه أن ينظر في شؤون العالم ثم يعمص عيبه عن حقائقه التي تصدم كل عين.

ومن السهل على من أراد أن يسوس العالم في خياله بالفضائل التي تروقه وترصيه.. وليس من السهل عليه أن يخلق العالم الذي يساس له ويرصى نص ارتضاه وقد علم هذا كل رجس واجهته مشكله وأحدة من المشكلات التي واجهت محمد نبي الرأي على غير مثال سابق بحديثه، إلا ما ألهمه الله.

رأى نابليون:

ماذا صنع نابليون في عصره الحديث؟

وإنما يصرب المثل بنابليون لأنه حصر انقلاباً في لأطوار وأعاد يشبه
نشأة الدين في أمام الدعوة الحمدية ونعمى به الثورة الفرنسية، وحضر
احداراً في الأخلاق والأداب يشبه الاسجدار الذى أصيب به العرب في أواخر
عهد الجاملية، وأسس دولة، ونظر فى سن قانون، وحول ضروباً من الإصلاح
نابليون قد طلق امراته وأكره أخبار المسيحية على قبول هذا الطلاق، وقد
اشتهرت له علاقات بخلياب متعددت، غير الخليات المجهولات..

ونابليون يقول عن المرأة «لقد صنعت كل ما وسعنى أن أصنع لتحسين
حائل أولئك المساكين الأبرياء أبناء الزنى. إلا أنك لا تستطيع أن تصنع لهم
الشيء الكثير دون مساس بقواعد الزواج. وإلا أحجم اندس عن الزواج إلا
القليل.

ولقد كان للرجل فى لعهد القديم سريات إلى جانب الزوجات، ولم يكن أبناء
الرمى محققرين بين الناس احتقارهم اليوم. إنه لمن المضحك أن يحظر على
الرجل لزواج بأكثر من واحدة فتحمس هذه الروجة الواحدة، وكان الرجل فى
أثناء حملها أعرب أو عقم.

واليوم لا سريات لرجال ولكنهم يعاشرون الخليات وهن أقدر على التمديد
والإفساد.

إنهم فى فرنسا يحولون النساء فوق حقهن من التعظيم وإنما الواجب ألا
ينظر إليهن كأنهن مساويات للرجال، فما هن فى الحقيقة إلا آلات لتحريج
الأطفال.

وقد تمردن فى إبان الثورة وعقدن الجماعات لأنفسهن، وبد لهن أن يؤلفن
فرقاً مذهن فى الحبش.

وكان لابد من صدن. لأن المجتمع الإنسانى مرضية للخل والفوضى إذا
ترك النساء حالة الاعتماد على الرجال وهى مكنهن الحق فى الحياة. نعم، إن
المجتمع لو شيك إذن أن يتمزق بدءاً بغير انتهاء

وعلى جنس من الجنسين أن يخضع للآخر لا محالة، فإذا نشبت الحرب بينهما، فمن تكون كحرب لأغبياء ولغفراء أو حرب اليمص والسود .
 إلا وإن الطلاق لأضر بالمرأة من وراءه فالرجل الذي يجمع بين زوجات لا يبنو عليه من ذلك أثر كالأثر الذي يبنو على امرأة بعد التزوج بعدة رجال، إنها تصحل إذن كل الاضمحلال.

رأى ثيتين:

كذلك اعترف نابليون بالضرورات الزوجية في لعصر الحديث. فكيف اعترف بها «ليبين» في الثورة الكبرى بعد الثورة الفرنسية؟
 من مشكلة الزواج بحل رابطة الزواج فلا رابطة بين الزوجين أو ثوق من رابطة الرفيقين في الفندق أو الطريق. وليس أعجب ممن جعل الزواج شريعة ملانك إلا لدى جعله على هذا النحو شريعة عجمאות.

عقوبة الزوجات:

ولا نحتم هذا الفصل عن النبي في حياته الزوجية قبل أن معرض لعقوبة الزوجات في لإسلام وللعقوبة التي اختارها عليه السلام لأن عقوبة الرجل لامرأته في حانة العصب كمحاسبته لها في حانة الرضا كلاهما ميران صابق لمكانتها عنده، ومكانة المرأة هامة في تقديره.

والفرن ينص على العقوبات السانغة في حالة الشوز وهي العظة، والهر في المصاجع والصر، والمسريح بيحسان ﴿واللآتي تحافون نشورهن وعظهن وأهجرهن في المصاجع وصرنهن فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾
 {نساء ٣٤}

﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكنهن بمعروف أو سرخن بمعروف ولا تمسكنهن صراراً تعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه..﴾ {البقرة ٢٣١}

والنبي عليه السلام لم يطلق روحة من زوحانه دخل بها وعاشرها، ولم يصرب قط واحدة منهم، ولم يرو عنه قط أنه ضرب أو نهر خادماً فضلاً عن زوجة، بل روى عنه ما ينفي ذلك ممن عاشروه ولازموه.

بل كان عليه السلام يكره ضرب النساء ويعيبه كما قال: «أما يستحي أحدكم أن يصرب امرأته كما يضرب العبد؟.. يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره!..»

فما نص القرآن عليه من عقوبة المصرب فإنما نص عليه لعلاج النشوز الذي لا يستقيم بغيره، وقبده المفسرون بشروط تمنع الإيذاء وتحتصره في القدر الذي يستقيم عليه الجزاء

هناك ما يفهم من ذكر الصرب بين العقوبات أن بعض النساء يتأدس به ولا يتأدس بغيره، وقد يعم الكثيرون أن هؤلاء النساء لا يكرهنه ولا يسترذلنه، وليس من الضروري أن يكن من أوبك العصبيات المرضيات اللاتي يشتبهن الضرب كما يشتبه بعض المرضى ألوان العذاب

إنما العقوبة أتت أثرها النبي عليه السلام هي الهجر لطويل أو القصير، بعد العظة والعتاب الجميل.

ولهجر سراً سيما الهجر في المضاجع عقوبة نفسية مألوفة وليست كما يسبق إلى بعضهم عقوبة حسية فزلم المرأة لما يقونها من سرور ومتعة فإن فوات السرور واعتدة أياماً لا يؤلم المرأة هذا الإيلام الذي يجعل الهجر في المضاجع من أصعب العقوبات دون الطلاق.

قل الأستاذ رشيد رضا رحمه الله في كتابه نداء للجنس اللطيف: «أما الهجر فهو صرب من صروب التأديب لمن تحب روحها وشق عليها هجره إياها، ولا يتحقق هذا بهجر المضجع نفسه وهو الفراش، ولا بهجر الحجرة التي يكون فيها الاصططاح، وإنما يتحقق بالهجر في الفراش نفسه وعمد هجر الفراش أو الحجرة زيادة في العقوبة لم يأذن بها الله تعالى وربما يكون سبباً لزيادة الحموة وفي الهجر في المصنع نفسه معنى لا يتحقق بهجر المصنع أو البيت الذي هو فيه، لأن الاجتماع في المضجع هو الذي يهيج شعور الزوجية فتكن نفس كل من الزوجين إلى الآخر ويروى اضطرابها الذي أثارته الحوادث قبل ذلك فإذا

هجر الرجل المرأة وأعرض عنها في هذه الحالة رُجى أن يدعوها ذلت الشعور
والسكون النفسى إلى سؤاله عن السبب ويهبط بهد من بشر الخفاقة إلى
صنصف المرافقة وكأنى بالقارئ وقد جزم بأن هذا هو المراد، وإن كان مثلى لم
يره لأحد من الأموات ولا الأحياء.

والذى نراه أن الأستاذ رحمه الله قد أخطأه المراد الدقيق من هذه العقوبة
الفلسفة وأن الحكمة فى إيقارها عمق جداً من ظاهر الأمر كما راه الأسرار
فأطلع العقوبات ولا ريب هى العقوبة التى تمس الإنسان فى عروده وتشككه فى
صميم كيانه فى المزية التى يعتز بها ويصحبها مناط وجوده وتكوينه..

والمرأة تعلم أنها ضعيفة إلى حاسب الرحمن، ولكنها لا تأسى لذلك ما علمت
أنها فتنة له وأنها عاليتة بفتنتها وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعثه فيه من
شوق إليها ورغبة فيها.

فيمكن له ما شاء من قوة، فلها ما تشاء من سحر وفتنة وعزاؤها الأكبر عن
ضعفها أن فتنها لا تقاوم، وحسبها أنها لا «تقاوم» بديلاً من القوة ولصلاعة
فى الأجساد والعقول..

فإذا قاربت الرجل مضاجعة له وهى فى أشد حالاتها إغراء بالمسة ثم لم
يبدلها ولم يؤخذ بسحرها فما لدى يقع فى وقرها وهى بهجس بما بهجس به
فى صدرها؟

أفوات سرور؟ أحنين إلى السؤال والمعاتة؟ كلا . بل يقع فى وقرها أن تشك
فى صميم أوثقها وأن ترى لرجل فى أقبر حالاته حديراً بهيتها وإدعائها وأن
تشعر بالضعف ثم لا تنعزى بالقنبة ولا بعلنه، لرمية فهو مالك أمره، لى جاسها
وهى إلى جنبه لا تملك شيئاً إلا أن تثوب إلى التسليم، وتفر من هوان سحرها
فى نظرها قبل فرارها من هوان سحرها فى نصر مضاجعتها.

هذا فأدب نفس وليس بأدب حسد، بل هذا هو الصراع لدى منجرد فيه
الأنثى من كل سلاح، لأنها جريت أمضى سلاح فى يديها فارتدت بعده إلى
الهريمة التى لا تكابر نفسها فيها، فابم تكابر ضعفها حين تلوذ بنفسها، فإذا
لانت بها مخذلتها قلن يبقى لها ما تلوذ به بعد ذاك.

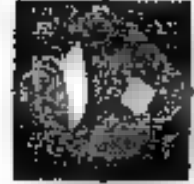
وهي حكمة العفوية البالغة التي لا تنفس بفوات متعة ولا تاعسان فرصة
للحديث والمعائبة.

إنما العفوية يبطال العصيان، وإن يبطل العصيان بشيء كما يبطل
بحساس العاصي بحية ضعفه وعاية هوة من يعصيه. والهجر في المصاحح هو
مثابة الرجوع إلى هذا الإحساس.

على أن عقاب النبي لرواحه كن من لندره بحيث لا يذكر لولا ما يعود
المسلمون من ذكر كل كبيرة وصغيرة في حياته الخاصة والعامة على السواء،
وهذا مع طول العشرة وتعدد الزواجات وكثرة الحوادث الجسم وقتة النسل
الذي يصل المقطوع ويراب المصنوع.

وكن معظم عقابه أشبه بعقاب نبي لسنما منه بعقاب زوج لروحان. وهو
في حالتي عقابه وإحسانه إنسان على أكمل ما يكون الإنسان من رحمة وكيس
ونصاف.

وإذا حارت الأدلة في قوام تلك الحياة الزوجية فالدليل الذي لا يحار أن
ينقصي نحو أربعين سنة عليها وهي على ذلك انصفاء والولاء الذي لم يعرف
مثله في علاقات الرجال والنساء، هذه حياة زوجية لا تقوم على الحب والمتعة،
وبن ندوم ذلك الدوام لو كان لها قوام غير مودة القلوب وراحة النفوس وحب
الخير ومبادلة العطف والتعظيم.



الأبوة الروحية والأبوة النوعية:

حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التي دقت عن أفهم وحارت في تحليلها عقول الأساطين من أهل العلم والحكمة

وهو -ولا ريب- مجرى على قانون مطرد في جميع طبقات الأحياء، وإن كنا نحن لا نعلم كنهه ولا نسبر عمقه، ولا نزيد عن استقصاء بعض الملاحظات التي تقارب الحقيقة، أو هي أقرب ما نستطيع الوصول إليه.

وأهم هذه الملاحظات التقريبية أنه يجرى على سمة المكافأة والتعويض في معظم حالاته. فمقابل النقص في جانب بالرادة في جانب آخر، ومقابل القصور في مزية من المزايا بالإتقان في مزية أخرى.

فالأحياء السفلى عرصة للعطب الكثير في طور الولادة والخصبة، فيقابل هذا أن الأحياء السفلى ترسل ذرياتها بالآلاف والوف الكوف، فيبقى منها القليل الكافي لنوام النوع بعد فناء الكثير.

والأحياء العليا يقل عدد المولود منها في النطن الواحد فيقابل هذا أن تطول خصانتها والعناية بها، وتجد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة في الأحياء السفلى. ويعلب أن يريد النسل حين تكون ريادة النسل هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وصنمان نوامه. فإذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجور ذلك على نسله ويستقص من قسمته في أبنائه، كأنما خدمة النوع صربية مفروضة على كل فرد في صورة من الصور، فإذا أداها في صورة أعنى منها في الصورة الأخرى أو كئنت في مواهب وأوراق لا يستوفيها الفرد الواحد إلا شتم عال محسوب عليه، يؤدي حسابه للنوع على نحو من الأنحاء.

والإنسان هو أقدر المخلوقات لحية على خدمة نوعه بوسائل كثيرة لا ننحصر في تجديد النسل وريادة عده.

فهو يجوز لنا أن نقول إن العظماء الذين حرّموا النسل قد أدوا ضريبتهم

بإصلاح شئون الناس فلم ينق من اللازم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه
الضريبة من طريق الذرية؟

إن قلنا ذلك فإنما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التي أشرنا إليها ولا
يبلغ تلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذى تستحقه، فعدية مبلغها عندما
أنها تستوقف النظر للتأمل والمراجعة ولا تعصى بنا إلى الحزم أو إلى التعيب.
فبعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتزوجوا، وفيهم أنبياء معظمون
لا شك فى سيرتهم من هذه الناحية، كعيسى عليه السلام.

وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يبررقوا الذرية، أو رزقوا ذرية كلها إناث، أو
رزقوا ذرية من الإناث والذكور ولم يعيشوا، أو عاشوا ولم يعصروا ولا كانوا
على حالة مستعدة من الصحة والمجبة.

وتراخي لعظماء فى جميع نواحي العظمة، وفى جميع الأمم، وفى جميع
العصور، حاملة بالشواهد التى تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خليفة بالتأمل
والمراجعة، يدخل فيهم لعديسون كما يدخل فيهم الحكماء، ويدخل فيهم العلماء كما
يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون، ويدخل فيهم القادة العسكريون والسياسيون
ولا يصعب على أحد أن يدير بصره إلى فترة من الزمن فى بلد قريب يعرفه حق
المعرفة ليشاهد مصدر ذلك فى نفر من عظمائه ومشهوريه، وحسبنا فى مصر
أسماء جمال الدين الأتعماني، ومحمد عبده، وسعد زغلول، وعبد الله نديم،
ومصطفى كامل، ومصطفى فهمى، ومحمود سامى البارودي، وحافظ إبراهيم.

فإذا جاز لنا أن نقف عند تلك الملاحظة وأن نتأمل معزاه، وجاز لنا أن
نعلم أن إصلاح شئون النوع الأساس صربية بمعنى عن صربية الذرية هى
بعض الأحوال - فليس ثراء نجد تلك الصربية فى أرفع حالة وأعلى قيمة إن لم
نجدها هى رسالة نبوية تتناول الأجيال بعد الأجيال وتتبدل الملايين فى كل
جيل؟.. وفى نبوة إنسانية تعنى عن نبوة اللحم والدم كما تغنى نبوة النبى الذى
يتكلم بمرسلة الأرواح هى أمه، وهى أم لا يقاها فى زمانه، وأم لا ير ل
تستجد بعد زمانه إلى أقصى الزمان؟

الأب الشكول:

تذكر هذا حين تذكر حظ محمد من الأبوّة الروحية ومن الأبوّة الوعوية، ونرى تكفوفاً في الجانبين جديراً بالملاحظة والاعتبار.

ألا ما أثقل ثمن الإصلاح!

ألا ما أحق المصلحين بالتمجيد وحسن الجزاء!

فمحمد الأب كان أصلح الآباء، ثم فجع في بطنه فحيعة لا يدارى منها ألم الإنسان إلا صبر الأنبياء.

ومن الناس من لا يكون صديقاً صالحاً ولا سيدياً صالحاً ولا زوجاً صالحاً، ولكنه أب صالح بر بينه..

لأن الرحم بين الآباء والأبناء أدنى الأرحام إلى المودة وأحرها بتحرك الشفقة فيمن لا يشفق على أحد..

فكيف تكون الأبوّة في نفس صلحت للصدقة وصلحت للسيدة وصلحت للزوجيّة لأنها تصلح للعطف الذي يعم القريب والعريب، ويشمل القوى والصعيف؟

ذلك أب نعلم كيف يفرح بأبنائه.

ونعلم كيف يحزن حين يفجع في أولئك الأبناء

ومن المراجع أن العطف الأبوي لم يتمثل قط في مولد أحد من أبناء محمد عليه السلام كما تمثّل في مولد ابنه الذي سماه باسم جده الأكبر أملاً في أن يصبح بعده جليقته الأكبر، ولعل العطف الأبوي قد تمثّل في تشجع هذا الطفل الصغير أشد من تمثّله في استقباله يوم ميلاده.

كانت أسباب كبيرة توجي إلى قلب محمد العظيم شوقه، لطويس إلى استقبال ذلك الوليد..

كان منها أن محمداً عربى يحرص على العقب من بعده كحرص كل رجل من أبناء القبائل وأصحاب العصبية هم فحورون بالنسب فحورون بالعقب، يحفظون سيرة أسلاف ويتوقون إلى استبقاء الحلف على نحو لا يعهده الحضريون، وإن كن حُب الثرية مطرة مركبة في جميع الطباع.

ومحمد كان يحب النكاثر لنفسه ويحبه لأمنه ويوصي المسلمين أن يستكثروا من النسيء ما استطاعوا ليماحر بهم الأمم وفرة وعرة. فشنيافه إلى العقب من الذكور خليفة عربية تغرن بالخليفة الإسلامية والخليفة النبوية فتزداد قوه على قوتها التي ركت في جميع الطباع.

وكان من أسباب هذا الشوق القوي طول العهد بالابناء بعد من وبناتهم له السيدة خديجة رضى الله عنها، وشمنة أناس من شائئته سماه بعضهم بالأنثى لا بقطاع معظم نسبه، وفي ذلك رسول الآية الكريمة ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَثَرُ﴾ [الكوثر ٢].

فقد مضى نيف وعشرون سنة لم تلد له في خلالها زوجة من زوجاته ومن في هذه الفترة كل أولاده ما عدا فاطمة رضى الله عنها التي ماتت بعده بقليل. مات المقاسم، والظاهر طفلين. وماتت رينب، ورقية، وأم كلثوم، بعد أن تزوجن، ولم يتعوض من فقدهن ما يعريه بعض العزاء..

فحبة تضاعف الشوق إلى الوليد المأمول.

وطول انتظار يضاعف الحب له كما يضاعف الشوق إليه.

ونسنا ندري لم طالت الفترة التي مضت على أزواج النسي جميعاً يعير عقب.. ولكننا لا نستبعد تعليلها باحتماص المصاذهب التي لا يندر أن تجتمع في أمثال هذه الأحوال. فعائشة البكر التي لم يتزوج النبي بكراً غيرها قد مات عنها عليه السلام وهي دون العشرين. وهي سن قد تبلعها المرأة ولا تلد، ومن كانت ووباً فيما بعدها.

وما أروجه الأخريات اللاتي تزوجن قبله فلا تعلم من أخبارهن أنهن أعقبن لأرواجهن لأولى حلقاً غير رمة أم حميمة، وهند بنت أمية لحرومية، وهذه كانت مسنة يوم بنى بها النبي عليه السلام وفي عمر لا يستغرب فيه امتناع الولادة.

فكلهن ما عدا هاتين لم يلدن للنبي ولا لزوج قبله، واجتماع هذه المصاذهب ليس بالعصبة المعضلة التي يصعب تعليلها إذا ذكرنا أن ليس هد توحى في اختيارهن تلك الأغراض العامة التي أجملناها في الفصل السابق ولم يتحرر

منها النسل خاصة، وهى الإيواء الشريف والمصاهرة، ويعصهن - بل معظمهن -
قد لقين من الشدائد والمخاوف وعناء لهجره العبد، ما يعجز الولوب.
فإذا أضفنا إلى ذلك معيشة الكفاف وحسرة العصمة السوية التى أشربا
إلها، على سبيل الاحتمال، واشتعال النبى فيما بين الخمسين ولستين بتعزيز
الدين وقمع لغت ودرء الأخطار - لم يكن فهم تلك الظاهرة الحيرية بالأمر
العصى على التعليل.

حزن الأبوة:

حال اشتياق النبى إلى الوليد المأمول، ويحدد اشتياقه فى أثر كل زواج حتى
جاءه ماريه القبطية من قصر بعيد، ومن معدن غير المعدن الذى يحنار لإيواء
المحزون وتغريب الأسر والعصبيات، ههشرب النبى يعقب لعله غلام، واجتمع
فى هذه البشارة اشتياق نبف وعشرين سنة، ورجاء لا يفتنى بانتهاء الزمان.
وولد إبراهيم!

ولد الطفل الذى نظر أبوه إليه يوم مولده فامقد به الأمل مئات انسعين، بل
لوف السنين، وتخير له الاسم الذى وراءه أعقاب كنعاب جده الأعلى، ليكون
بُ ويكون له أحفاد، ويكون لأحفاده من بعدهم أحفاد .
ثم مات ذلك الطفل الصغير..
ومات ذلك الأمل الكبير .

مات كلاهما والأب فى لستين. أى صدمة فى خيام العمر؟ أى أمل هى
الحياة؟ الدين قد تم، وهذه الأصرة قد انقطعت، فليس فى الحياة ما يستقبل
وينتظر، كل ما فيها للإشاحه والإندمار.
مات الطفل ولما يدرك اسنتين.

مصائب صغير إن كانت المصائب تقس بسنوات المفقودين،
ولكن المصائب فى الأعزاء إنما تقاس بملغ عطفا عليهم، والصغير أحوج
إلى العطف من الكبير المستقل بشئته.

وإنما تقاس بمبلغ تعويلهم عند، وتعويل الصغير على وليه أكبر من تعويل الكبير..

وإنما تقاس بمبلغ الأمن فيهم. والأمل يطول في بداعة الطريق وقد يقصر في منتصف الطريق.

وإنما تقاس ألام المفقودين بأعمار الفاقدين وأي مصاب أقدر من مصاب الستين وما بعدها في الأمل الوحيد الواصل بينها وبين الزمان ماضيه وآتيه^٩ ما حبلى محمد في موقف أدنى إلى القلوب الإنسانية من موقفه على قبر الوليد الصغير ذارف العينين مكطوم الرجد ضارعا إلى الله

نفس قد بعثت الرجاء في نفوس الألوذ بعد لألوذ، وهي في ذلك الموقف قد انقطع لها رجاء عزيز، رجاء وأسقاء لا يحييه كل ما ينفثه المصلح في الدنيا من رجاء.

وكانى محمد كان يومئذ أقرب إلى قلوب الخالفين من بعده مم كان مع انجالسين حوله، ومع أقرب لناس إليه.

كان أقرب الناس إليه روحاته أمهات المسلمين وكن بحسبه غاية ما يجب النساء الأرواح، ولكن حصن إياه لم يكن في هذا الموقف من حب المقربات العاصفات، لأنه حب آثار عربهم من أم الوليد المأمول، فاحجب من عطفهم بمقدار تلك الغيرة وبمقدار ذلك الحب، ولا لوم عليهن فيما طبع عليه الإنسان وفيما لا يعصده ولا يهزون عليه.

وكان أقرب الناس إليه أصحابه الخاشعون بين يديه، وكان إكبارهم لسيد الأنبياء يسيهم أنه من الآباء، بل أنه أب أرحم من سائر الآباء.

طبوا أن التنى لا يحزن، كم ظر قوم أن الشجاع لا يخاف ولا يحب الحياة، وأن الكريم لا يعرف قيمة المال.

ولكن لقلب الذى لا يعرف قيمة المال لا فضل له في الكرم، وقلب الذى لا يخاف لا فضل له في الشجاعة، وقلب الذى لا يحزن لا فضل له في الصبر. إنما الفصل في الحزن والغربة عليه، وفي الخوف والسمو عنه، وفي معرفة لذل والإيثار عليه

وفضل النبي في بيوته وفي أبويه أنه حزن ويكى وتلك هي الصلة بينه وبين قلب الإنسان، وبينه وبين الناس، وأي نبي تنقطع بينه وبين أنسب الإنسان صلة كهذه الصلة التي تجمع أشقات لقنوب؟

روى أسامة بن زيد أن زبيب بن السبي أرسلت إليه إن أنسى قد حضرتنا شهدنا . فأرسل إليها ﷺ يقول: «إن لله ما أخذ وما أعطى وكل شيء عنده مسمى . فلتحسب ولتصبر» . فأرسلت بنفسه عليه، فقام أنسى ﷺ وقمما . ورفع الصبي في حجر النبي ونفسه تقعق ففاضت عينا النبي ﷺ فقال له سعد ما هذا يا رسول الله؟

قال ﷺ «هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده . ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء» .

ما هذا يا رسول الله؟

هذا رسول الله في أصدق ما تكون عليه رسالة الرسل . في الرحمة . وهي الأصرة الإنسانية، وعير هذا لن يكون .

ومحمد قد اتقى رؤية طفل يموت لابنه وهو كهل غير يئس من العقب، فكيف يكون حزنه على ولادة كبده إبراهيم وهو بعد ذاهب الرجاء في الأبناء؟ لقد كان حزنه لموته بمقدار فرحه بمولده، وكان فرحه بمولده بمقدار أمه فيه واشتياقه إليه .

وإن العطف الإنساني كله ليتجه إلى تلك النفس الركبة وهي تتوسع فرحاً بالوليد المأمول.. حلق لأن المنهل شعر ولده وتصديق برنته فضة على المساكين . وذلك هو التوسع الذي وسعه رجل كن أقدر الرحال على وجه السبطة، غير مستثنى فيها رؤساء ولا ملوك .

حاء ماقصي ما عنده من الفرح وقصي ما عنده من التوسعة . ولو شاء لقد كان وزن الوليد كله ذراً وجوهر، بعض ما يستصعب في ذلك اليوم الأعر الميمون . ويمقدار هذا الفرح الظهور يوم الاستقبال كان لحزن الوجيع يوم الولد . خرج الرجل الذي اصطلع بناعباء الدنيا ومن فيها . وهو لا بضطلع بحمل قدميه . خرج ينوكاً على صديق عطوف إلى حيث يحسن أولاد آخر مرة

في حجره الأبوي قبل أن يودعه حشر لئراب.. وكان يستقبل أجمل بوجهه فقال: يا جدي لو كان بك مثل ما بي لهدك، ولكن إنا لله ونا إليه راجعون..
أى والله.. إنها لإحدى القوهر التي يحملها اللحم والدم ولا حصنها صخور الجبال..

وهصرخ أسامة حين بكى رسول اله فهناه رسول الله وقال: البكاء من الرحمة والصراخ من الشيطان.

حزن كما ينبغي له أن يحزن - أما الحزن الذي لا ينبغي له فهو الصراخ الذي بهي عنه، وهو أن تنكسف الشمس يوم موت إبراهيم عجبسب المسلمون أنها تنكسفت لموته، ويقول الأب الذي انكسفت الشمس حقاً في عينيه «كلا. إن الشمس والقمر آتان من بأت الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته»، أو تخسفان ولكن في أكباد المحزونين، وليس في كبد السماء..

أكرم الأبناء:

أوكان من الحتم أن يكون محمد مثال الأباء كما كان مثال الأبناء؟ كذلك شاء لقدر القادر، وكذلك رأنا محمداً مثال الأب يوم ولد له إبراهيم، ومثال الأب يوم ذهب عنه إبراهيم.

ما يتمنى طفل - لو جاز أن يتمنى الأطفال - أبوة أرحم ولا أدكى من هذه الأبوة في الحالتين..

بل كان محمد مثال الأب حيثما كن له نسل قريب أو بعيد، وذكر أو أنثى وصغير أو كبير.

أرايت إبي الحسن بن فاطمه وقد دخل عليه فركب ظهره وهو ساجد في صلاته؟

إن النسي في صلاته لهو النسي في مقامه الأسنى، وإن النسي في مقامه الأسنى ليشفق أن يشعل الصبى عن لعيه فبطيل السجدة حتى يزل الصبى عن ظهره غير معجل.

ويسأله بعض أصحابه لقد ظلت سجودك؟ فيقول: إن ابني ارتحنى فكرهت أن أعجله!

أرأيت إلى فاطمة تدخل البيت أشبه الناس مشية بمشية محمد
أرأنت إلى حنان يقبض على لقلب كحبابه حين يرى فتاة تشبه أباها في
مشيته وسعته!

تلك فاطمة بقية الأقيان من الأبناء ولعنات، يختصها الربي بمناجبه في
غشية وفاته إني مفرق الدنيا - فتبكي - إني لاحقة بي غنضط... في هذا
الضحك وفي ذلك البكاء على برزخ انفراق بين الدنيا والآخره أخص الود
والحنان بين الآباء والأبناء.

سرهما بسوته، وسرهما مأبوته، فضحكت ساعة انفراق لأنها ساعة الوعد
باللقاء..

وكذلك فارق الدنيا أكرم الأنبياء وأكرم الآباء.

السيد



الخير المطبوع:

قدمت الكلام في فصول هذا الكتاب عن محمد رئيساً، ومحمد صديقاً، ومحمد زوجاً، ومحمد أباً، بعد انكلام على عبقريته في الدعوة، وعبقريته في قيادة الجيوش، وعبقريته في السياسة والإدارة والبلاغة.

وبقى جانب لا تتم بغيره الإحاطة بجوانب النفس الإنسانية في العلاقات بينها وبين سائر النفوس، وهو جانب المعاملة التي تكون بين الرجل ومن هم دونه من يملك أمرهم ويقبض على زمامهم ولا يمتصمون منه بعاصم غير عو صم طبعه وخلقه، ويريد بهم الحدم والعيد والأرقاء، وهي معاملة لها من ادلالة على الأخلاق، ما يندر أن تدل عليه معاملة أخرى، لأنها تأتي من طبائع النفس وعقائدها، ولا تأتي بأمر امر أو بدعوة داع.

فالصداقة لها الحقوق المتكافئة بين الصديقين لا يستطيع أحدهما أن ينسأها زمناً طويلاً إلا ذكره بها مذكر من صديقه الحافظ لحقوقه، القادر على مقابلة الجفاء بمثله، ولو في طوية نفسه.

والرئاسة قد تحول الرئيس حق السيطرة، وتعرض على المرؤسين واجب الطاعة، غير أنها قل أن تعطل بغير وارع من خشية الغضب أو خشية الانتقاص يحسب له الرئيس كل الحساب، أو بعض الحساب.

والأب يعطف على بنيه فلا يعجب الناس لعطفه عليهم، لما ركب في طباع جميع الأحياء من حب الأب لولده، وإن اختلف الآباء في صفات لعطف وفي استحقاقهم لبر الأبناء.

وكذلك الزوج يرفق بزوجته وليس له كل الاختيار في رفقه، لما يكون بين الزوجين من دالة يعتر بها الضعيف، ويستغنى بها أحياناً عن القوة والرئاسة..

أما العبد المملوك فلا عاصم له غير ما في نفس سيده من رحمه وخير، وإنه لمن الرحمة والخير أن يتبع السيد أمر الدين مع عبيده وخدمه الذين لا ينصرونهم

عليه باصر في هذه الديب.. بل إنها لرحمة تؤثر ولو وقفت عند حدود الأوامر الإلهية، هبنا تجاوزتها إلى ضواعة في الحير لم يفرضها الدين ولم يفرضها العرف ولم يطلبها العبد نفسه هناك هي الرحمة في أصدق معانها، وهي أدل الدلالات على لباب الأخلاق.

ولقد علم القارئ من فصولنا السابقة أننا لم نكتب هذا الكتاب لشرح الأصول الإسلامية وتفصيل محاسن الدعوة الحميدية فذلك عرض لا يتسع له هذه الفصول وليس لنا أن نصدي له بعد من فصوله وكرروا الكتابة فيه.. وإنما يقصد بهذه الفصول إلى عرض قدماء على كل عرض في موضوعه، وهو بيان النواحي النفسية التي نوحى إلى النبي أعماله ومعاملاته، ولاشك في مطابقة هذه النواحي لكل أمر من أوامر الدين وكل نهى من نواهيه إلا أن الخير المصروع شيء و الخير المأمور شيء آخر، والخير المصروع هو الذي قصصنا إلى بيانه بكل ما بينه

ففي كتابنا عن معاملة محمد للعبيد والخدم لا ننوي أن نعصل أحكام الإسلام وأوامر القرآن في هذه المعاملة، وإنما ننوي أن نبين مزية محمد على جميع السادة في هذا الباب، وهي مزية لا تنوهر لمن يقنعون بالتزام الأوامر والحدود، ولا لندين يرتفعون إلى أرفع مرتبة تفرضها هذه الأوامر والحدود.

الإسلام والرق

على أن هذا لا يمنعنا أن نوجز الإشارة بداعة إلى مزية الإسلام بين الأديان الأخرى في مسألة الرق والاستعباد، لأن أناساً يخلطون بين اعتراف الإسلام ببوع من الرق وبين اعتباره مسئولاً عن وجوده في الزمن القديم، ويردون شيئاً من ذلك إلى عمل النبي عليه السلام..

فمن الواجب أن نذكر أولاً أن بيتاً من الأديان الأخرى لم يلزم بإلغاء الرق في شكل من أشكاله سواء رق الحرب أو رق النخاسة والبيع والشراء، وإن أناساً من أقطاب المسيحية كالقديس أغسطين سوغوه واعتبروه جزاء عادلاً

للخطايا التي يقتربها المسترقون، وجاء بعض أصحاب الكنيسة فحرموا على الأرقاء شرف الخدمة فيها بالوعظ والهداية، أنفة لها أن يندسها لؤم العنصر لدى وسموا به الرقيق.

ويجب أن نذكر بعد هذا أن البطام الاقتصادي القديم هي أساسه كان مرتبطاً بالاسترقاق أشد الارتباط، فكان العدو طفرة واحدة أقرب شيء إلى المستحيلات، ولم يكن أنفع في علاجه من التدرج خطوة فخطوة والابتداء بتصعيبه وترغيب الدس عنه، وهو ما شرعه لإسلام.

فالإسلام قد بدأ بتحريم كل رق غير رق الأسرى في الحروب، ثم حسن إطلاقهم وسماه مناً وعفواً يشكر فاعله عليه ﴿فَإِذَا مَنَّ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ فَأَمَّا إِذَا فَدَاهُ﴾ [محمد ١] ثم أحرر للأسير أن يشترى نفسه وأوجب حرينه في حالات كثيرة يرجع معظمها إلى إرادته هو، إذا استصاع

والحق الذي لا مرأى فيه أن صنيع الإسلام هذا كان أحمل صنيع لقيه الأرقاء من دين أو شريعة، وأنه إذ كن هناك تمهيد لإلغاء الرق بنة فذلك هو تمهيد الإسلام دون غيره، وهو أقصى ما كان مستطاعاً في نظام العائم القديم بطم كان عدد الأرقاء فيه يقارب عدد لأحرار، كما جاء في بعض الإحصاءات المروية عن الحضارتين الرومانية واليونانية

وقد نظر في مسألة الرق عقل من أكبر العقول التي بيعت في أمة اليونان بل هي الأمم كافة ويعنى به أرسطو فسأله وأوجبه لأنه جعله سنة من سن لعصرة بعيداً لا مكان منه لطئعة من الناس، خلعت عاجرة عن ولاية أمرها فلا عنى لها عن سيد ولا موئل لها من وال.

معاملة محمد لعبيده:

ولو وقف النسي عند هذا المد في معاملة الأرقاء لأحسن وأجمل وامتنان بأمر دبه على كل محسن إلى الأرقاء في زمانه إلا أننا نقرر الواقع ولا نتعداه قد شعرة حين نقول إن كثيراً من الأبناء لا يتمسكون عند أنامهم خيراً من لماملة

التي ظفر بها خديم محمد وعبيده. ومن من الآباء يحسن إلى أبنائه خيراً من
إحسان محمد لزيد بن حارثة ولابنه أسامة؟

لقد أعتق ريداً وراه أهلاً للزواج بعتيبة من أقرب قريباته إليه وأولاهن بحده
وتوحيده، وهي التي رآها بعد ذلك أهلاً لزواجه بها وحظوتها لديه، فلم يعطه
الحرية وكفى، ولم يعطه المسارة في العيش وكفى، بل رعه إلى المنزلة الاجتماعية
التي يرتفع إليها السادة، ولا يثبتها شيء كما يثبتها شرف المصاهرة.

ثم حفظ هذا البر الأبوي لأنه أسامة، فولاه جيش الشام وهو دون
العشرين، وفي الجيش طائفة من أكابر الصحابة، فلو كان للنبي ولد في سنة لما
تكفل به أحسن من هذه الكفلة، ولا ميزه أشرف من هذا التمييز.

نعم لم نعد الواقع، ولا تجوزنا في الوصف، حين قلنا إن الابن لا يتمنى
خيراً من معاملته محمد لعبيده. فقد عرف ريد فعلاً أن محمداً خير من أب وخير
من أسرة كاملة يرجع إليها وترجع إليه.. فبقى معه ولم يذهب مع أبيه، ولم يبق
معه إثارة لبركة النبوة، فإن محمداً لم يكن قد أرسل بالدعوة يوم أخضاره ريد
وأثره على جميع له. وإنما بقي معه لأنه الإنسان الذي يعرف حتى العبد
الرقيق أن أصرة الإنسانية عنده أوثق من أصرة الأبوة عند آخرين

إن حب الوالد لوليدته ورائة ألوف الألوف من الأجدال بل ورائة الحياة في
جميع الأحباء، فإذا بلغ البر بالضعفاء مبلغ الحب الأبوي من القوة فقد بلغ
الذروة العليا التي لا تمسم فوقها لواق.

لقد خبرت شريعة الإسلام المحسنين بين المن وإعتاق الأسرى، وبين الفداء
بالمال أو المبادلة.. فأيهما اختار المالك فهو إحسان.

أما محمد فقد اختار المن وراد عليه فأعتق كل أسير صار إلى حوزته، وزاد
على العتق تلك الرحمة الأبوية التي شملت كل منتم إليه، ولم يستبح في غضبه
ما يستبيحه المعلم والوالد من ضرب وتعزير.. وربما كانت كلماته للخادم
المخالف أقرب إلى اللطفة منها إلى العقاب. ومن ذلك قصة الرصيفة التي
أرسلها فأبطلت في الطريق، فما راد على أن قال بها حين عادت: «لولا خوف
القصاص لأوجعتك بهذا السوء».

ضرب سواك لابن عزيز ليس بالشئ الكثير.

ولكن محمداً يخشى القصاص إذا استباحه في معاملة وصنعة نهمل أمره، وهو الذي لا يهمل له أمر عند سادة الشرفاء.

وروى أنس أن النبي أرسله في حاجة فأنحرف إلى صبيان يلعبون في السوق. «وإذا رسول الله ﷺ قد قبض ثيابي من ورائي، منظرته إليه ﷺ وهو يصحك، فقال: يا أنس!.. اذهب حيث أمرتك!».

كلمة أمر لا بقولها لخدمته إلا وقد ناداه مدلاً وقابله ضاحكاً كأنه يعتب على قرين وقد يلام القرين بأشد من هذا الالام.

وكنت رحمه بعيد غير كرحمته بعنده. فكان محاسنهم ويجمر كسرهم ويقبل منهم الهدية ويكافئ عليها، ويلبى دعوتهم إذا دعوه إلى طعام، ويوصي بهم قائلاً «هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما ياكل ويلبسه مما يلبس ولا تكفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم» و«اتقوا الله في الضعيفين النساء والرقيق».

البر بالخدمة:

وربما كان البر بالخدمة في هذا المقام أكرم وأغنى للهوان من البر بالخدم. فالبر بالحادم عطف عليه أما البر بالخدمة فارتفاع بالحادم إلى مقام السادة حيث لا يأنف السادة من خيعة أنفسهم بأيديهم، وذلك هو البر بالخدمة كم عنياناه، وذلك هو دأب النبي الذي جرى عليه في بيت وبين أهله وخدمه.

فقد كان يجلب شاته ويخصف نعله ويخدم نفسه ويعف ناضحه، أي البعير التي يسقى عليه ماء، فإذا رأى الخدم لهم عملاً في البيت بمثل عمل سيدهم ومالك أمرهم فتلك هي المساواة التي تسمح خسر الخدمة وتجبر كسرهما، ولا تقتصر على العطف والرحمة.

ولم يقبل عليه السلام خدمة من خادم يأنف الأحرار أن يقضوها له شاكرين فما كان في رجال المسلمين كبر من كابر إلا كان يعني أن يؤدي لسيده تلك الخدمة التي تطوعت بها نفوس مواليه واتساعه، وهذا ضرب آخر من ضروب

البر بالخدمة و لتسوية منها بين مفعم الخادم ومفعم المريد. فكان عمل الخادم
عنده عمل التلميذ الذي يجلس إلى قدمي أستاذه، حباً لا خنوعاً، وبوقيراً لا
مدلة، وادباً يفرضه على نفسه وليس بضريرة مكتوبة يفرضها عليه العرف
وانتداب.

وعلى هذا كان النبي عليه السلام يكره أن تقل يداه محافة أن تجري العادة
بهذا بين الناس فتجعل بينهم على مهمل الدلة والحضوع قال أبو هريرة
رصى الله عنه «دخلت للسوق مع النبي ﷺ فشتري سراويل ، وقال للوران :
زن وأرجع فوثب الوران إلى يد رسول الله ﷺ يقبلها ، فجذب يده وقال :
هذا تفعله الأعاجم يملوكها ، ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم ، ثم أخذ السراويل
فذهبت لأحملها فقال : صاحب الشيء أحق بشيء أن يحمله»

ولقد يصح أن يقال إن حصة النبي من خدمة نفسه كانت أعظم من حصة
خسمة. وإن تمويلهم عليه كان أكبر من تعويله عليهم وإنه جعل الخدمة على سنته
صرباً من توريد الأعمال، أو صرباً من معاون أبناء لبيت الواحد فيما يستطيعه
كل منهم من تدبيره وقضاء شؤنه.

«إنما أن عبد أكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد».

هذه كلمة السيد بإمامته، السيد بنفسه، السيد بسطانته، السيد بالتفاف
القلوب حوله السيد بسيادته على سره وعلايته ورأيه وهو ولو عمت هذه
السيدة لطن الاستعداد وأصبح تفاوت الدرجات كتفاوت الأعمار شيئاً لا
عصاصة فيه على صغير ولا خنزوة فيه لكبير، إما هو تقسيم أعمال، ومعاون
بين إخوان، وإن لم يكن تعاوناً بين أمثال.

الطبائع الأربع:

طبيعة لعبادة، وطبيعة التفكير، وطبيعة التعبير الجميل، وطبيعة العمل والحركة..

هذه طبائع أربع تتفرق في الناس ولما تجتمع في إنسان واحد على قوة واحدة فإذا اجتمعت معاً فواحدة منهن تغلب سائرهن لا محالة، وتلحق الأخريات بها في القوة والدرجة على شيء من التفاوت.

طبيعة العبادة تدعونا إلى الاتصال بأسرار الكون للمعاطفة والتآلف بيننا وبينها، تدعونا إلى الحلول من الكون في أسرة كبيرة.

وطبيعة التفكير تثير في نفوسنا ملكات الكشف والاستقصاء.. تدعونا إلى الحلول من الكون في معمل كبير.

وطبيعة التعبير الجميل تشب النار المقدسة في سرائرنا، فتصهر معادن الجمال من هذه الدنيا وتفرغها في قوالب حسناء من صنع قرائننا وألسنتنا، أو صنع قرائننا وأيدينا، أو صنع قرائننا وأوصالنا، تدعونا إلى الحلول من الكون في متحف كبير.

وطبيعة العمل والحركة تعلمنا كيف سنثر بدواعي الكون وكيف نوثر فيها، وتجذبنا إليها فنستمد منها القبرة التي تجذبها إلينا، تدعونا إلى الحلول من الكون في ميدان صراع ومصمار سباق

وقلما نشعر بالكون بيتاً لأسرة، ومعملًا لباحث، ومتحف فن، ومصمار سباق في وقت واحد، إنما هي حالة من هذه الحالات تجب سائر الحالات، وقد تلحقها بها إلحاق لتابع بالمتبوع والمساعد بالعامل الأصيل.

محمد بن عبد الله كانت فيه هذه الطبائع جميعاً على نحو ظاهر في كل طبيعة

كان عبداً ومفكراً ، وقالاً بالعد ، وعاملاً بغير الدنيا بعمله ولكنه عليه السلام
كان عبداً قبل كل شيء ، ومن أجل العبودية - قبل كل شيء - كان تفكيره وقوله
وعمله ، وكل سحية فيه .

تهيئاً للعبادة بميراثه وشأنه وتكوينه فولد في بيت السدانة وانتقوى ، وتقدمه
إباء يؤمنون بإيمانهم ، ويعتقدون ويخلصون فيما اعتقوه .

ونشأ يتيماً من طفولته فانطوى على نفسه وتعود التأمل والجد والعزوف عن
حدث الصغار ، والنظر إلى ما حوله بعين السائد المترفع عن الدنياه ، الصانع إلى
الطهر واستقامة الضمير

وتكون في بنته عبداً من صباه ..

قيل إنه في الثانية أو الثالثة من عمره قد أدركته حاة يختلف شراح التاريخ
في تفسيرها ، ويرويها من سمعوا بها على روايات مختلفات لا ندري ما هو
الواقع الصحيح منها ، ويتعجل بعض المؤرخين الأوربيين فيحسبها ضرباً من
الصرع على غير سند علمي أو تاريخي محقق يستند إليه .

كل ما يمكن أن يحرم به من هذه الحالة أو من غيرها أن محمداً قد تكون
ليتلقي الوحي الإلهي ، وأن لهذا النكوتين استعداداً لا بد أن يلحظ من أوائل
صباه ، لأن البسة لينة له في أيام ولا في أشهر ولا في سنوات ، ولن
تستطيعه ، لا إذا تمت أميتها له والمولود في صلب أبيه ، ولا تقول في العهد أو
في الرضاع .

فمن الأقوال المتواترة أنه كان عليه اسلام إذا نزل عليه الوحي نكس
رأسه ، وكرب لالك وتريد وجهه ، وأخذه البرحاء حتى إنه ليحدر منه مثل
الجعان في اليوم الشاسي ، وسمع عند وجهه كدوى البحر ، وقد يصدع
فيعنف رسه بالحذاء وقد شاب فقال « شيتني هود وأخوانها » . وعدد حين
سئ عن أحوالها سرراً أخرى من القرن الكريم ، وليس هذا من خيطة كل
بديهة إنسانية إنما هو خلقه البديع الذي يتلقى وحياً ونسبوعب سرراً وتهتر
لنبأ عظيم

صفة العابد:

وكانت أوصافه في غير حالة الوحي توفق الاستعداد الذي يرشحه لتلقى الوحي والنسوة فكان حساً كله وحاسة كله، يراه من يطر إليه ويرى فؤاداً يقطاً يسه لكل خالصة تقسية وكل نبأ خفية، يسرع في مشيته، ويلتفت فيلتفت بكل جسمه، ويشير ويشير بكل كفه، ويفكر فلا يزال يطرق إلى الأرض أو يرفع بصره إلى السماء، ويدعو فيرفع يديه حتى يرى بياض بطنه، ويحسب فنحصر عيناه ووجبتاه، ويمتلئ عرق جبينه وينام وقلبه نقيط لا ينام، حس مرهف يدس إليه من وراء الحجاب، ويوقظ سريره لأخفى البواطن، ويجعله أبداً في حالة قريبة من حالة الوحي حيثما هبط الوحي عليه.

هذه صفة عابد يفكر ويعبر ويعمل، وليست بمصفة هابط ينقطع للعبادة أو ينقطع للتفكير، أو يعمل كما يعمل بعض السالك الذين هزلت بدبهم الجسدية فلم يبق لهم إلا عكوف الصومعة أو رحلة الزهدة.

كنت عبادة محمد خلواً بالنفس إلى حين، أو عجباً من بدائع الكون التي ألفها الناس لأنهم لم يوهب لهم في أبصرهم وبصائرهم تلك النظرة، الجديدة التي ترى كل شيء كأنه في خلق جديد.

ما أعظم دهشة الناظر أن يرى الشمس قد خلقت ليوم أمام عينه، دهشة لا تعدلها دهشة..

وهي هي دهشة لعين التي بت أن تكل من الألفه لأنها أبداً في نظر جديد، أو في نظر إلى كل منظور كأنه مخلوق جديد.

وهكذا كانت عبادة محمد عليه السلام عجب من بدائع لكون في كل نظرة يراها لأول مرة، وتفكير في الحلق ينتهي إلى الإيمان لأنه يبدأ بالعجب، ولا يزال أبداً بين العجب والإيمان.

وإن محمداً يبعث الإيمان إلى القلوب، لقد كان يحدد إيمانه كما يجدد عجنه كل يوم، وكان يدعو الله فيقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». وقبل له في ذلك فقال: «إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ».

حركة متجددة في الحس وهي الفكر وهي الصنيع.

فلا انقطاع عن الحس لعبادة كل الانقطاع.

ولا انقطاع عن الحس لتفكير كل الانقطاع.

ونما هو تفكير من ينظره العمل، وليس بتفكير من ترك العمل ليوغل في الفروض ومذاهب الاحتمال ونشكيات: تلك أيامه لربه وثلاثها لأهله، وثلاثها لنفسه، وما كان في فرائعه لنفسه ولا لأهله شيء يخرج به عن معنى عبادة الله والاتصال بالله، على نحو من العميم

بهره الجمال من صباه، حماس الشمس والقمر والنهار والليل، ولروض الصمراء، وجمال الوجوه التي يلمع عليها الحسن فطلب عندها الحبر. إنما هو الحبر على كل حال ما قد طلب من اتصال، وإنما جمال الله هو الذي قد كان يدعو إليه، كلما نظر إلى خلق جميل.

فكر في الخلق فأمن بالخالق واستقر هداك لا يتقدم ولا يتأخر. فقل «إن الشيطان بأني أحدكم فيقول: من خلق السماء؟ فيقول: الله. فيقول: من خلق الأرض؟ فيقول: الله. فيقول: من خلق الله؟ فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل: آمنت بالله ورسوله»

تلك هي نهاية التفكير التي ينهي إليها عقل مستقيم خلق لعبادة عامل، وتعليم الناس عبادة وعملًا، ولم يخلق ليوغل في لفروض ويتقلب بين الشكوك.

وإنا لسائر مع هذا إلى أين انتهى لمفكرين الدين «وعطوا في شكوكهم وتطوحوا بها إلى قصوى ما تفرضه الفروض؟

إلى أين انتهى «كانت» Kant إمام المفكرين في هذا الباب بين فلاسفة العصر الحديث، إن لم نقل الحديث ولقدیم؟

انتهى إلى أن انفس نفوس والوجود وجودان نفس حسية ونفس حقيقية.. ووجود محسوس ووجود حق هو ذات الوجود.

النفس الحقيقية تدرك الوجود الحقيقي عندما نرجع إلى قرارها ثم لا تنحصر بإدراكها عالم أياضن إلى عالم المحسوسات التي يتناولها التعبير وتصوير الكلام..

أليس معنى هذا أن إيمان النفس الباطلة أمر لا يتعلق بالرهان؟ وأن المرجع غيبة المرجع إما هو الإيمان ولا شيء غير الإيمان؟
بل حتى الرهان الأكثر على وجود الله يعود إليه لسأله وسمع منه فمادام يقول؟

يقول لنا إن العدم معلوم فالوجود إذن موجود، وإنك إذا أمنت بالوجود فلا مناص لك من إيمان به في صفته المثلى، لأنك تحتاج إلى مقتضى لفرض النقص ولا تحتاج إلى مقتضى لفرض الكمال في وجود لا يتطرق إليه العدم.
وما لفارق بين الإيمان بالله والإيمان بالوجود في صفته المثلى؟
هنا ينتهي الإنغال في القروض والشكوك.

وهناك انتهى الإيمان، بغير إنغال في قروض ولا شكوك.
ألا تتلاقى النهايتان؟.. أولا تضل القروض والشكوك حيث تضل ثم لا يخطو لها قيمان وراء خصو الإيمان؟

لهذه السنة التي استنبتها النسي عليه السلام في عبادته الروحية كثرت وصاياه بإدمان التفكير في خلق الله واجتناب التفكير في ذات الله فقال في حديث: «تفكروا في آلاء الله ولا نمكروا في الله». وقال في هذا المعنى: «تمكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله شهلكوا». وقال في حديث قدسي: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لأعرف» أو كما جاء في رواية: «فحبقت الخلق فبى عرفوني».

طريق الوصول:

وخلاصة هذه الأحاديث وما في معناها أن التفكير في حقائق الوجود هو طريق الوصول إلى الله ولا طريق غيره للحواس ولا للعقل ولا للبديهة إيمان بالوجود الأبدى في صفته المثلى، وتفكير في حقائق الوجود كما تراها ونحسها وبغفلها، وبذلك قصارى ما عند العقيدة، ومصارى ما عند الفلسفة، وقصارى ما عند العلم إذ يقف العلم عند حده، وهذا هو العلم الذي فرضه الإسلام على كل

مسلم ومسلمة، وقال النبي في رواية ابن عباس «أنه أفضل من الصلاة والصيام والحج والجهاد في سبيل الله» لأنه سبيل الوصول إلى الله.

ومن الواجب أن نذكر بعد هذا جميعه أن محمداً نبي، وأن النبي يعلم جميع الناس الإيمان، وبذلك سبيل جميع الناس قسماً بفتح لهم من أبواب التفكير وأبواب الاعتقاد. فهم يصلون في تيه لشكوك وانقاضات التي يتعمق فيها الفلاسفة والمنطقيون، ولا ينفخون إلى هداية أقوم وأسلم من هداية الإيمان بالحائق والتفكير في الحقيقة، فما هذه الهداية وإما اضلال الذي لا هداية ورء، وليس لنبي أن يحجب طريق الهداية ويفتح طريق الضلال.

وقد تكلمنا في هذا الفصل عن روح العبادة أو عن فطرة العابد التي توحى إليه «عبادته الروحية».

أما عبادة الشعائر الظاهرة فهي عبادة الإسلام كما فرضت على جميع المسلمين: يصلي النبي ويصوم ويحج ويؤدى الزكاة على الشريعة التي تمنعها كل مسلم، وقد يطلب إلى نفسه في هذه العبادات ما ليس يطلبه إلى غيره، على سنة السماحة والتيسير التي أثرت عنه في كل عمل من أعماله وكل سجية من سجاياه..

«وكان أحف الناس صلاة على الناس وأطول الناس صلاة لنفسه»، وربما قام الليل أكثره أو أقله ولا يدين أحداً بانتهاج كما كان يتهاجد أو بالصلاة والصيام كما كان يصلي ويصوم، بل قد نهى الناس أن يشتدوا في العبادة فيصبحوا كالمجنون «لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»؛ لأن الناس جميعاً يتلقون الأمر بالعبادة كما يتلقون الأمر بفريضة واجبة، فهم في حاجة إلى الرفق والتيسير.

أما النفس المغطورة على العبادة فالصلاة عندها مناجاة حب وفرحة لقاء، ومطالعة ليل الضمير وميل الجوارح على السواء.

وكان محمد «إذا حزبه أمر صلى».

كذلك إذا حزّب الأمر نفساً رجعت إلى من تحب فحف وقرأها وانفرج كربها،
وأنست بعد وحشة واعتدب بعد حيرة.

ومتى وجدت النفس «فرحة اللقاء» في الصلاة فلا إجهاد فيها لجسد ولا
خصيق فيها لوقت، بل فيها الترويح عن الجهد والتنفيس عن الضيق، ولا سيم
إذا كانت النفس من سعة الأفق بحيث تحيي ما تحيي من ليالها ونهارها في
الصلاة والعبادة ثم تؤدي عملها وتفكر تفكيرها. ولا يحسب أحد يعرفها أنها
تنقطع بالصلاة والعبادة عن حق من حقوق حياتها، أو عن حق من حقوق بني
الإنسان.

الرجل



المختار:

عاش في العصور الماضية كثير من العظماء الذين تواترت الأنبياء بأوصافهم السماعية وأوصافهم المرسومة في الصور والتمثيل. عذر أنا لا يعرف أحداً من هؤلاء العظماء تمت صورته السماعية أو المنقولة كما تمت صورة محمد عليه السلام من رواية أصحابه ومعاصريه، فنحن نعرفه بالوصف خيراً من معرفتنا لبعض الحليين بصورهم وتمثيلهم التي نقلت عنهم نقل الحكاية ولطيفة، لأن هذه الصور والتمثيل قد تحكى للناظرين ملامح أصحابها ومعارفهم الطاهرة، وقد تحكى للمتفرسين شيئاً من طابعهم التي تتم عليها سيماهم، إلا أنها لا تحفظهم لنا كما حفظت الروايات المتواترة أوصاف النبي في كل حالة من حالاته وكل لحظة من لحاته في سببها وهي هذامه، وفي شرابه وطعامه، وصلاته وصيامه، وحله ومقامه، وسكوته وكلامه، لأن الذين وصفوه وأحبوه وأحبوا أن يقتلوا به فخرجوا في وصفه كما يخرج امرء في الاقتداء بصفات النجاة والأخذ بأسباب السلامة. فكانت أمانة الوصف هنا مريجاً من العطف والندى، وضرباً من اتباع السنن وقصص الفروص، لم يختلف الوصف مرة إلا كما تختلف نظرة الناظر إلى وجه واحد بين ساعة وأخرى، فيقول غير ما قال انفاً ثم لا يبدو التناقض ولا قصد التحريف بين القولين.

وخلاصة المحفوظ من الروايات المتواترة أن النبي عليه السلام كان مثلاً مبرراً لجمال الرحولة العربية، كان كشافته في جميع شمائله مستوفياً للصفة من جميع نواحيها قرب رجل وسيم غير محبوب، ورب رجل وسيم محبوب غير مهيب، ورب رجل وسيم يحبه الذس ويهابونه وهو لا يحب الناس ولا يعطف عليهم ولا يبادلهم الولاء والوفاء، أما محمد عليه السلام فقد استوفى شمائل لوسمة والمحبة والعطف على الناس فكان على ما يختاره واصفوه ومحبه، وكان نعم المسمى بالمختار.

إذا نظر إليه الناظر رأى رجلاً أرهر اللون، عظيم الهامة، مفاصل الجين،
 سبط الشعر أزج الحاحين بينهما عرق يدره الغضب، أدعج العينين في كحل،
 أنفى الأنف يحسبه من لم يتأمله أشم العرنين، أسيل الخد، ضليع الفم عزير
 اللحية، جميل الجيد، عريض الصدر، واسع ما بين المنكبين، ضخم الكراديس،
 طويل الزندي، رطب الراحه، شثن الكفين والقدمين، لا بالمشذب ولا بالقصير،
 مربوعاً أو أطول من مربوع، معتدل الخلق متماسكاً، لا بالدين ولا بالنحل..
 وإذا أقبل يتحرك نظر إليه الناظر فرأى رجلاً يصفه الأقدمون بأنه «حى
 القلب» ويصفه المحدثون «بالحركة والحيوية»..

يمشى فكأنما يتجدر من جبل وينحط من صعب، ويرفع قدمه فيرفعها تعلقاً
 كأنما ينشط بجملة جسمه، ويلهت فيسفت كله، ويشير فيشير بكفه كلها،
 ويتحدث فيقارب يده اليمنى من اليسرى ويضرب بإبهام اليمنى راحة اليسرى،
 ويقع الكلام بأشداقه ويختمه بأشداقه. وربما حرك رأسه وعض شفته في أثناء
 كلامه، وهو على هذه الحركة الحية جم الحياء، أشد حياء من العذراء، نضاح
 المحيا إذا كره شيئاً عرف ذلك في وجهه، وإذا رضى تطلعت أساريره وتبين
 رضاه.

واقترن التشط وأحياء بالقوة والنضاء في هذه البنية الجميلة. فكان عليه
 السلام يصرع الرجل القوى. ويركب الفرس عارياً فيروضه على السير،
 ويداعب من يحب بالمسابقة في العدو، قالت عائشة رضى الله عنها «خرجت
 مع النبي ﷺ في بعض أسفاره وأنا حاربه لم أحمل اللحم فقال ﷺ :
 تقدموا . فتقدموا . . ثم قال : تعالى حتى أسبقك . فسابقته فسبقته ، فسكت .
 حتى إذا حملت اللحم وكنا في سفرة أخرى قال ﷺ للناس : تقدموا
 فتقدموا . . ثم قال : تعالى أسبقك . فسابقته فسبقني ، فجعل ﷺ يصيح
 ويقول : هذه بتلك !»

وهذا بعد أن قارب الستين، إنها لمسابقة سم على فوه الروح فرق ما نعت
 عليه من فترة الأوصال.

وتجلت هذه الأريحية في علاقه بكل إنسان من خاصة أهله أو من عامة

صحيحه. فرقت حاشية جده حتى عطف على كل أسي، ورحمت كل ضعف،
وامرجت بكل شعور.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه «دخل النبي ﷺ على أمي فوجد أخى
أبا عمير حزيناً . فقال : يا أم سليم .. ما بال أبي عمير حزيناً؟
فقلت : يا رسول الله مات غيره . تعي طيراً كان يلعب به
فقال ﷺ : أبا عمير! ما فعل الغير؟ .. وكان كلما رآه قال له ذلك».

وهذه قصة صغيرة تفيض بالعطف والمروءة من حيثما نظرت إليها ، فالسيد
يزور خادمه في بيته، ويسأل أمه عن حزن أحبه، ويواسيه في موت طائر، ولا
يزال يرحم ذكره كلما رآه.

ومثل هذا عطفه على الضعف البشري في رجل مثل عبد الله الحمار الذي
لقب بهذا اللقب لما اشتهر به من السكر والدعابة. فكان النبي عليه الصلاة
والسلام يحده في الحمر ولا يتمالك أن يصحك منه.

قبوله للدعابة:

وكان نعيمان بن عمرو أشهر الأنصار بالدعابة، لا يقبل منها أحداً ولا يراه
النبي فيتمالك أن يبتسم.. وربما قصد النبي ببعض هذه الدعابات لطمعه في
حلمه وعلمه بموقع الفكاهة من نفسه . جاء أعرابي إلى الرسول فدخل المسجد
وأناخ راحلته بفائه ، فقال بعض الصحابة لنعيمان : «لو بحرثها فأكلناها؟ . فبنا
قد قرمنا إلى اللحم ، وغرم النبي ﷺ حقها» . فخرها نعيمان . وخرج الأعرابي
فرأى راحلته فصاح : «واعفراه يا محمد! فخرج النبي يسأل . «من فعل هذا؟»

قالوا : «نعيمان» . فاتبعه النبي حتى وجده بدار صياغة بنت الزبير بن عبد
المطلب قد احتضى في خندق وجلس عليه الحريد فأشار إليه رجل ورفع صوته :
«ما رأيته يا رسول الله» . وهو يشير بأصبعه إلى حيث هو ، فأخرجه رسول الله
وقد تعمر وجهه بالتراب فقال : «ما حملك على ما صنعت؟» قال . «الذين دلوك
على يا رسول الله هم الذين أمروني» ، فجعل رسول الله يمسح عن وجهه التراب
ويضحك .. ثم غرم ثمن الراحلة.

وعيمان هذا هو الذى بع عاملاً لأنى بكر الصديق وهو يعلم أن النبأ واصل إلى الننى لا محالة.

سافر أبو بكر إلى بصرى تاجراً ومعه نعيمان وسويط بن حرمة عامه على راده. فباعه نعيمان وطب إليه طعاماً فآذنه عليه حتى يأتى أبو بكر، فاقسم نعيمان ليغيظنه، وذهب إلى قوم فقال لهم «تشترون منى عبداً لى؟»، قالوا: «نعم!». قال: «إنه عبد له كلام، وهو قاتل لكم، لست بعده أبداً رجل حر إلى أشباه ذلك، وإن كان إذا قال لكم هذا تركتموه فلا تشروه ولا تصدوا على عدى...»، قالوا: «لا... بل يشتريه ولا ننظر إلى قوله»، فاشتروه منه بعشر قلائص، ثم أداهم إليه فوضعوا عمامته فى عنقه ولم يحملوا نقوله، وجعلوا كلما قال لهم: «أنا حر!». إنه ينهراً وليست أبداً بعبد». سخروا منه وقالوا: بل عرفنا خبرك فمدع صك اللجاجة... فلما جاء أبو بكر سأل عنه نقص عليه نعيمان قصته، وذهبوا جميعاً ليلحقوا بالقوم فيمتدوه ويعيدوه.

ثم قدموا على رسول الله فضحك من فعلة نعيمان، وجعل يذكرها حولاً كاملاً كلما رآه.

من سعة النفس أن ينهض الرجل بعطائكم الأمور بن بأعظمها جداً ووقاراً وهو إقامة الأديان وصلاح الأمم وتحويل مجرى التاريخ ثم بطب نفساً للفكاهة ويطيّب عطفاً على المتفكّكين ويشركهم فيما يشغلهم من طرائف الفراغ فليجد صرامة تستغرق بعض النفوس فلا ينسج لهذا الجواب اللطيف من جوانب الحياة ولكن النفوس لا تستغرق هذا الاستغراق إلا دلت على شيء من ضيق الحظيرة ونقص المزايا وإن نهضت بأعظم من الأعمال.

فاستراحة محمد إلى الفكاهة هي مقياس تلك الآفاق النفسية الواسعة التى شملت كل ناحية من نواحي العصفة الإنسانية، وهى المقياس الذى يبنى من العظمة ما يبنى به الجد فى أعظم الأعمال.

وكان محمد يتفكّه ويمزح كما كان يستريح إلى الفكاهة والمزاح وكان دأبه فى ذلك كدأبه فى جميع مزاياه، يعطى كل مزية حقها ولا يأخذ لها من حق غيرها، أو يعطى الفكاهة حقها ولا يقص بذلك من حق الصديق والمروءة

فعبدا له الخمار كان يجد من هب النبي عطف القلب الكبير على بقيصة
الصعف في الرجل الكبير، ولكنه كان يجد من تأديب النبي جزاء الشارب
الذي يخاف البين ويحل تعاديه بالشرية، عطف يجل بالنبي على أحسن ما
يكون، لأنه يجل بالإنسان على أفضل ما يكون.

وإذا مزح محمد فهنا كان يعطى الرضا والمشاشة حقهما ولا يخذلها
من حق الصدق والمروعة، فكان مزاحه أية من آيات النبوة لأنه كان كذلك أية من
آيات الإسدينية، ولم يكن بالقيض الذي يستعرب من نبي كريم.

قال لعمته صفية: لا تدخل الجنة عحوزا... فبكى، فقال لها وهو يصحك:
الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُ إِنْشَاءً﴾ (٧٥) ﴿فَحَمَلْنَاهُ أَنْكَارًا﴾ (٧٦) ﴿عُرْبًا أَرَبًا﴾
(الواقعة ٢٥-٣٧)

فهمت ما أراد وثابت إلى الرضا والرجاء.
وطلب إليه بمصهم أن يحمله على بعير فوعده أن يحمله على ولد الباقة
فقال يا رسول الله! ما أصنع بولد الباقة؟ فقال: وهل تلد الإبل إلا النوق؟
وكان عليه السلام يقول لحاضنته السوداء: أم أيمن وهي عجوز «عطى
قناعك يا أم أيمن».

وسمعتها في يوم حزين تنادي بلكنتها الأعجمية «سئت الله أقدامكم»، فلم
تنسه الغربة الفاتمة أن يصغي إليها ويداعبها بين نذر الحرب وصيليل السيوف،
وأقبل عليها يقول «اسكني يا أم أيمن فإنيك عسراء اللسان»، فكانت هذه
الندماية في ذلك الموقف المرهوب كأنها تربت سيد العصماء على تلك اللكة
البرية

أريحية محمد:

هذه الأريحية الفيضة هي الحلية الباطنة التي تمت بها خطبه محمد في
عيون الناس، وهي جواب محمد لما كان له في قلوبهم من حب وإعظام، أو هي
الأسرة التي تجمع بين قلبه وتلك القلوب في نطاق الأسرة الإنسانية، يصوبه

ويحذهم ويشعرون به ويشعر بهم، وليس قصارى الأمر أنه وسيم وأنه محبوب وأنه مهيب.

سمت يقابل العيون بجمال
وأريحية تقابل النفوس بحمال.

وقد سرت هذه الأريحية في صميم طبيته فامتزجت طواعية وارتجالاً بجميع خصاله وجميع علاقاته بالناس ولاسيما الصعفاء والمكسورين. فكان أحرص إنسان على حرر القلوب وتطبيب الخواطر وتوخي المزاولة واجتناب الإساءة، يتفقد أصحابه كباراً وصغاراً ويسأل عنهم، ويتحدث إلى نوى الأقدار وعامة الناس فلا يحسب صغيرهم أن أحداً أكرم عليه منه، ويتحدث إليه من شاء فلا يقطع عليه حديثه وإن طال. وإذا انتهى إلى قوم جلس حدث ينتهي به المجلس، ومن حاله صابره حتى يكون هو المنصرف، وما أخذ أحد بيده فأرسلها حتى يكون الأخذ هو الذي يرسلها..

ومن سننه التي اتبعها وأوصى بتباعها أن يجيب دعوة من دعاه ولا يرد دعوة عند ولا خادم ولا أمة ولا فقير وفي ذلك يقول من وصاياه في آداب الولائم والمعافى: «إذا اجتمع الدعيان فأجب أقربهما باباً، فإن أقربهما باباً أقربهما حواراً، وإن سبق أحدهما فأجب الذي سبق».

يبدأ من لقيه بالسلام ويمر بالصبيان فيقرئهم سلامه. وربما خفف صلاته إذا جاءه أحد وهو يصلي ليسأله عن حاجته ويلقاه بالتحية.

يتقى انغضب جهده ويعالجه إذا أحسه بعلاج من الروح، فيقبل على الصلاة والتسبيح، أو بعلاج من الجسد، فيجلس إذا كان قائماً ويصطحج إذا كان جالساً، ويأسي الحركة لتي يفرغ إليها وهو غضبان.

آدابه الاجتماعية:

وكن في آدابه الاجتماعية قنوة الرجل لهدب في كل زمان فلم يرقط ماداً رجله بين أصحابه، وتعود كلما زار أحداً ألا يقوم حتى يستأذنه، ولم يكن ينفخ في طعام ولا شراب ولا يتنفس في إناء، وإذا أخذ العطاس وضع يده أو ثوبه

على فيه، وربما نهض بالليل فيشوص فيه بالسواك، ولا يزال يستاك ويوصي
بالاستياك بعد الطعام والقيظ من النوم، وكان يتطيب وينحري البطافة ويقول
لصاحبه «اغسلوا يوم الجمعة ولو كأساً بديار»

وقد تختلف العادات الاجتماعية بين جيل وجيل في شئون عرقية لا تتعس
بلباب الذوق والشعور فيأكلون في جيل بأصباع اليد ويأكلون في الجيل الآخر
بالشوكة والسكين، ويخرج أناس بالثياب السود ويخرج غيرهم بالثياب البيض
وهي عرضيات يقاس بها عرف البيئة ولا يقاس بها تهذيب الطماع، فلا صير
على الناس أن تختلف عاداتهم باختلاف بيئاتهم من أمة لأمة ومن جيل لجيل.
وأما الضير فيما يتناول الطبع السليم والذوق الحسن وهما اختصاصان اللسان
كان عليه السلام قدوة فيهما لكل رجل مهذب في كل أمة وفي كل زمان . فلم
يكن أحد يشكو من محضره بإنصاف، وذلك هو ملاك التهذيب الكامل في
أصدق معانيه..

صاحب هذا السميت رسول..

وصاحب هذه الآداب رسول..

وخلاصة سمته وآدابه أنها سماحة في الانتظار وسماحة في القوب..
فالسماحة هي الكلمة الواحدة التي تجمع هذه الخصال من أطرافها، والسماحة
هي الصفة التي ترقت في محمد إلى ذروة الكمال.

ومن يكون الرسول إن كان لابد من تعريف وجبر لعلامات الرسالة الرسول
هو الذي له وازع من نفسه في الكبير والصغير مما يتعاطاه من معاملات
الناس، لأن عمل الرسول الأول أن يقيم للناس وارعاً بأمرهم بالحسن وببهاهم
عن القبيح ويقرر لهم حدودهم التي لا يتخطونها فيما بينهم، ومن كان هذا عمله
الأول فيبسمي أن يكون صفته الأولى - بل صفته الكبرى - أن يستغنى عن
الوازع وأن يغنى لناس عن محاسنهم وطلب الحق منه وهذه هي السليقة
السابعة الشاملة التي سرت في خلائق محمد وامترجت بجميع أعماله وأقواله
فلم يحاسبه أحد قط كما حاسب نفسه في رعاية حق الصغير والكبير، وصيانة
الحرمان للعاجز والفقير.

هذه علامة رسالة لا علامة أصدق منها ولا أحدر منها بالقول، لأنها علامة من دخل السريرة.. وليست علامة من حارحها قد تلام أو تفارق من سروره.. وليس للنوع البشرى مقياس صحيح يقاس به محمد فيعصيه مرتبة دون مرتبة الحب والتبجيل. يعطيه هذه المرتبة من يدين بالإسلام ومن يدين بعمر، الإسلام ومن ليس له دين من أديان التنزيل.

فليس للنوع البشرى أصل من أصول الفضائل يرمى إسي مقصد أسمي وأبيل من تقديس تلك المناقب التي كان محمد قدوة فيها للمقتدين.

عزيمة الزهد والإيمان،

وليس أولى بالحب والتبجيل ممن يطلب خير الناس ويزهد في نعمة العيش وهي دين يديه.

فقد ثبت أن محمداً لم يستمتع بدنياه ولم يشبع ثلاثة أيام تباعاً حتى مضى لسبيله، وقالت عائشة - رضي الله عنها - «لقد كنت أنكى رحمة له مما أرى به وأمسك بيدي على بطنه مما أرى به من الجوع» وأقول: نفسي لك العداء لو تبلعت من الدنيا بقوتك، فيقول: «يا عائشة! مالي وللدنيا.. إخواني من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا».

وقالت زوجة أم سلمة بصف ما وجدته في بيته ليلة عرسها «... وإذا حرة فيها شيء من شعير، وإذا رحي وبرمة وقدر وقعت فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته في البرمة، وأخذت القعب فأدمته، فكان ذلك طعام رسول الله ﷺ وطعام أهله ليلة عرسه»

راه عمر وقد أثر في حبه حصير فقال له: «يا رسول الله! قد أثر في حنك رمل هذا الحصير، وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله» فاستوى جاساً وقال: «أفنى شك أسب يا ابن الخطاب؟» أولئت قوم قد عجبت لهم طبيائهم في الحياة الدنيا».

ولقد مات ودرعه مرهوبة، ولا ميراث لاهله مما تروث من عقار وهو قليل. فما عسى أن يقول قائل في قدر هذا الرجل. امن به أو لم يؤمن؟

أيقول إنه رسول وإنه كن يعلم أنه رسول فصدع بأمر ربه واحتمل ما
احتمل هي سبل طاعته وفي سبيل إصلاح خلقه؟
تلك إذن مبرلة ، لأبياء التي تستوجب له مقام أصفياء الله عند من يؤمن
بإلهه.

أم ينكر البواب ويقول إنه رجل أراد الحير وهو لا يعلم أنه رسول ولا أن
الله مطالبه برسالته إلى خلقه، ولكنه تحرد لهدايتهم في عمر مأرب سأل ولا
نعمة ينعم بها لأنه لا يطيق لهم شرًا ولا ينتظر في الدنيا ولا الآخرة جزاء؟
من قل هذا وعرض من قسر رجل يحب الناس ذلك الحب ويعار على هد يبينهم
تلك العيرة فهو إنسان ممسوخ الضمير.

فمحمد الرجل في المقام الأول بين الرجال في المقام الأول بحقيقته، وفي
المقام الأول بنيتته، وفي المقام الأول بعمله، وفي المقام الأول بالقياس إلى
الشبهين له في دعوته.

ونرى عن يقين أنه لم يحرم نفسه ذلك الحرمان إلا استزادة لأسباب الإيمان
وشحداً للعزيمة في سبيل ذلك الإيمان، وإعدراً إلى الله وإلى الناس فيما تحرد
له من إصلاح.

لأن مصداً لم يكن كارعاً لطيمات الدنيا، ولا حاضاً لأحد على كراهتها
والإعراض عنها فإذا قنع بما قنع فربما فعل ذلك ليرتفع بإيمانه عن ظنه هو لا
عن ظنون غيره..

كأنه يخشى إذا استوى حظوظ النعم ليسرة له أن يحسب تلك الحظوظ
غرضاً من لأغراض التي نظر إليها حين نظر إلى هداية الناس.

قليلن الإيمان إذن هو كل عزم وكل عمل وكل هراء.. وتلك راحة ضميره،
ومن وراء راحة ضميره أن يطهر الناس بجهده كله في هدايتهم غير منقوص
ولا مطبور.

إذن هدى الناس واستمتع بالعيش خشي أن يحسب لمتعة من أماله
وإذا هدى الناس وكفى كانت الهداية هي جملة آمال وعاهية الأمان، فليقص

حفظه من العيش ليكمل حظه وحظ أمته من إيمانه، وليتم بذلك حسابه لنفسه
وحسابه عند الله وحسابه بين الناس..

وما حساب أولئك جميعاً؟

حساب رجل هو وازع نفسه في السر والعلانية، وهو أحق الناس أن يقيم
وارعاً للناس.

رجل ولا كمتك الرجال.

محمد في التاريخ



اتصال التاريخ بمحمد:

أردنا بالفصول المتقدمة أن نصف محمدًا في عبقريته، أو محمدًا في نفسه، أو محمدًا في مناقبه التي يتفق على تعظيمها من يدين برسالاته الدينية، ومن لا يدين له برسالة

وبريد بهذا الفصل - وهو خاتمة الكتاب - أن ننكر كلمة موجرة عن محمد في التاريخ، أو محمد في العالم وأحداثه الخالدة. وهو بحث يغنيا فيه الإيجاز، لأن العالم كله صفحات تنبثنا بمكان محمد فيه.

محمد في نفسه عظيم بالغ في العظمة، وفاقًا لكل مقياس صحيح يقاس به العظيم عند بنى الإنسان في عصور الحضارة.

فما مكان هذه العظمة في التاريخ؟ ما مكانها في العالم وأحداثه الباقية على تعاقب العصور؟

مكانها في التاريخ أن التاريخ كله بعد محمد متصل به مرهون بعمله، وأن حادثاً واحداً من أحداثه الباقية لم يكن ليقع في الدنيا كما وقع لولا ظهور محمد وظهور عمله.

فلا فتوح الشرق والغرب، ولا حركات أوروبا في العصور الوسطى، ولا الحروب الصليبية، ولا نهضة العلوم بعد تلك الحروب، ولا كشف القارة الأمريكية، ولا مساجلة الصرع بين الأوروبيين والآسيويين والإفريقيين، ولا الثورة الفرنسية وما تلاها من ثورات، ولا الحرب العظمى التي شهدناها قبل مضع وعشرين سنة، ولا الحرب الحاضرة التي نشهدها في هذه الأيام، ولا حادثة قومية أو عالمية مما يتخلل ذلك جميعه كانت واقعة في الدنيا كما وقعت لولا ذلك ابيتيم الذي ولد في شبه الجزيرة العربية بعد خمسمائة وإحدى وسعين سنة من مولد المسيح.

كان التاريخ شيئاً فأصبح شيئاً آخر، توسط بينهما وليد مستهل في مهده

بتلك الصلحبات التي سمعت في اليهود عداد من هبط من الأرحام إلى هذه
العباء.. ما أضعفها يومئذ صيحات في لهواء ما أقوها بعد ذلك أثراً في
دوافع التاريخ ما أضخم المعجزة وما أولانا أن يؤمن بها كلما مضت على ذلك
أبولد أجيال وأجيال وما أعاننا أن يبحث عنها قبل ذلك بسنين حيث بحث
عنها المنجمون والعرافون

على أننا نستعظم الأحداث العظم في تاريخ بني الإنسان بمقدار ما فيها
من فتوح الروح، لا بمقدار ما فيها من فتوح البلد نـ.

وجائز أن يقع في الدنيا طوفان أو زلزال، فيتصل به من أحداث الرخوف
والفتوح ما يبدل في التاريخ، ويبعث دوافع الشعوب

أما عمر الحاضر فهو أن تفتح للإنسان افق جديدة من عالم الضمير بغر
عظمة روحية يوحىها الإيمان، وبغير رسائله باطنية تسبق هذه الظواهر التي
تهول الأنظار.

ولقد فتح الإسلام ما فتح من بلد ن لأنه فتح في كل قلب من قلوب أتباعه
عالمًا مغيبًا تحيط به الضلمات، فلم يزد الأرض بما يستولي عليه من أقطارها
فبن الأرض لا تزيد بعلمه سيد على سيد أو بامتداد التخوم وراء التخوم، ولكنه
زاد الإنسان أطياف زيادة يتركها في هذه الحياة، فارتفع به مرتبة فوق طباق
الحيوان الساتم، ودنا به مرتبة إلى الله.

ندب هذه الحقيقة كل من يدب بحقيقة في عالم الضمير. فمن أنكرها فإما
يكر تقدم الإنسان كثيراً أو قليلاً في هذه الطريق

عقد عالم أوروبي^(١) مقارنة بين محمد وبوذا والمسيح فقال: «ألس محمد
نبيًا على وجه من الوجوه؟» ثم أجاب قائلاً: «إيه على ليقين لصاحب فضيلتين
من هضتل الأنبياء: فقد عرف حقيقة عن الله لم يعرفها الناس من حوله،
ويمكن من نفسه برعة باطنية لا تقاوم لشئ تلك الحقيقة، وإيه حليق في هذه
الفضيلة أن يسامي أوفر الأنبياء شجاعة وبطولة بين بني إسرائيل، لأنه جارف
محباته في سبيل الحق، وصبر على لإيداء يوماً بعد يوم عدة سنين، وقابل النفي

١ الدكتور ماركس دودس في كتابه «محمد وبوذا والمسيح».

والحرمان والصفية، وفقد مودة الأصحاب بغير مبالاة، فصابر على الحملة قصارى ما يصدر عنه إنسان نور الموت الذي نجا منه بالهجرة، ودأب مع هذا جميعه على بث رسالته غير قدر عني إسكاته وعد ولا وعيد ولا إغراء... وربما أمتدى إلى التوحيد أناس آخرون بين عبيد الأوثان، إلا أن أحداً اجر غير محمد لم يقم في العالم مثلاً أقدم من إيمان بالوحدانية دائم مكين، وما أتيح له ذلك إلا لمضاء عزمه أن يحمل الآخرين على الإيمان، فبدأ سأل سائل ما الذي دفع بمحمد إلى قناع غمره حيث رضى الموحثون بعبادة العزلة؟.. فلا مناص لنا أن نسلم أنه هو العمق والقوة في إيمانه بصدق ما دعا إليه.

والحقيقة التي يراها المصنف - مسلماً كان أو غير مسلم - هي هذه هي أن فتوح محمد فتوح إيمان، وأن قوة محمد قوة إيمان، وأنه ما من سمة لعمله أومح من هذه السمة، ولا من تعليل لها أصدق من هذا التعليل. لقد جاء الإغراء الذي أشار إليه لعالم الأروبي وهو داعٍ مهذب في سره، وجاءه وهو عزيز الشأن بين المؤمنين بدعوته، فما حفل بالإغراء وهو بعيد من مقصده ولا حفل به وهو واصل إليه.

جاءه سيد قومه عتبة بن ربيعة وهو في مبدأ أمره قتل له واعداءً ملاطفاً بعد أن أعياهم تخويفه متوعدين «يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من حيارنا حسباً ونسباً، وإنك قد أتيت قولك بأمر عظيم فرقب به حماعتهم، وسفهت أحلامهم، وعنت الهتهم ودينهم، وكفرت من مضى من أدبهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تمطر فيها لعلك تقلل منا بعضها». فقال عليه السلام قل يا أبا الوليد.

فقل «يا ابن أخي» إن كنت تريد بما حنت به من هذا الأمر مالأ جمعنا لك من أموال حتى تكون أكثرنا مالأ، وإن كنت تريد شرفاً سودك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكاك علينا، وإن كان الذي سألتك رتباً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الملب وبذلنا فيه أموالنا حتى يبرئك منه». فما راد عليه السلام عني أن أحاطه بآيات من القرآن الكريم، ثم تركه يعود كما أتى..

ثم أدرك النسي غبابة ما سعى إليه فلم بدخس له المال ولا المتاع في حساب، ولم يكن اننعيم المستطاع أعمل في إغرائه من النعيم الموعود بل كان النعيم المستطاع هو ما حلم به عبدة بن ربيعة، وكان النبي أرهد فيه من ردهه في النعيم الموعود.. قلم كل هذا؟ لم هذا الجهاد؟ ولم هذا العناء؟ ولم هذا الصبر إن لم يكن هي سبيل الإيمان؟ وأي مبي له من الإيمان شفاعة أكسر من هذه الشفاعة ورسالة أكبر من هذه الرسالة.. وأي إنسان يعرف تعظيم الأنبياء إن لم تظهر نبوة محمد عنده بالتعظيم؟

التاريخ هو فيصل التفرقة بين محمد وشائثيه؛ حكمه أنفذ من حكم الشائثين والأصدهاء، وأنفذ من حكم اشركين والموحدين، وأنفذ من حكم المبدئين والملاحدين.. لأنه حكم الله.

وقد حكم له أنه كان في نفسه قدوة لمهدين، وكان في عمله أعظم للرجال ثراً في الدنيا، وكان في عقيدته مؤمناً ببعث الإيمان، وصاحب دين يبقى ما بقيت في الأرض أديان.

وسيطع في الأفق هلال ويغيب هلال، وسيذهب في الليل قمر ويعود قمر، وتتماق هذه الشهور التي كنها جعلت لتاريخ ما بين الصدور، لأن الناس لا يورخون بها مواسم الزرع ولا مواعيد الأشغال ولا أسوار الدواوين وأحكامات ولا يسطرونها إلا هداية مع الظلام وسكينة مع الليل؛ أشبه بهداية العقيدة في غماب الضمير.

يوم الغار

ستطلع الأقمار بعد الأعمار، وتقل السنة القمرية بعد السنة القمرية وكنها نقل معلم من معالم السماء يومئ إلى بقعة من الأرض هي غار الهجرة، أو يومئ إلى يوم لمحمد هو أجمل أيام محمد، لأنه أدل الأيام على رسالته، وأخصها لعقيدته ورجاء سريرته، وهو يوم التقويم الذي أختاره المسلمون بأنهم لا يعلوه تفكير ولا تعليم.

لم كان يوم الهجرة ابتداء التاريخ في الإسلام ولم يكن يوم الدعوة؟ ولم لم

يكن يوم بدر أو يوم ولادة النبي أو يوم حجة الوداع يوم ابتداء التاريخ.. كل يوم من هذه الأيام كان في ظاهر الرأي وعاحل النظر أولى بالتاريخ والتمجيد من يوم الفرار بالنفس والعقبة في جنح الظلام.

فالرجل لذي اختار يوم الهجرة بدءاً لتاريخ الإسلام قد كان أحكم وأعلم بالعقيدة والإيمان ومواقف الخلود من كل مؤرخ وكل مفكر يرى غير ما رآه

لأن العقائد إنما تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب كل إنسان يؤمن حين يتغلب الدين وتموز الدعوة. أما النفس التي تعتقد حقاً ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقاً فهي النفس التي تؤمن في الشدة وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء

وليس يوم أحق بالتاريخ إذن من اليوم الذي هجر فيه النبي مكة: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَهْرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ {التوبة ٤٠}

ليقل من قال إن التوقيت بما قبل الهجرة وما بعدها كان توقيتاً معروفاً على عهد النبي ﷺ.. وليقل من قال إن دخول المدينة هو المقصود بالتاريخ من الهجرة، وهو يوم عظيم.. ليقل من قال هذا أو ذاك، فإن تاريخ النصر في القرآن إذ هو «ثاني اثنين» في الغار.

وإن ابن الخطاب لتبيل ملهم القواد - سواء كان هو المقترح أو صحيح الاقتراح - حين نظر إلى غار «ثور» ولم ينظر في التاريخ إلى نصر المدينة ولا إلى نصر بدر ولا إلى نصر أحد ولا إلى نصر فارس، ونظر إلى تلك «الجنود التي لم تروها» وقد تراها نحن الآن

يوم الدعوة لم يكن يوم لإسلام الأول، لأن الدعوة كلمة تستطيعها كل إنسان ويستطيع الكول عنها بعد قليل أو كثير

ويوم ميلاد النبي لم يكن يوم لإسلام الأول، لأن ميلاد محمد لم يكن معجزة الإسلام كب كان ميلاد عيسى معجزة المسيحية، ولأن محمداً بشر مثلنا في

مولده. ولكنه سيد الرسل يوم دعا ويوم نجا بالدعوة إلى حيث تنجو وحيث تسود، وحيث يكون امتحانها الأول في قلب صاحبها وقلب صاحبه الصديق، وهما اثنان في غار.

كذلك تزخر العقائد والأديان؛ بالشدة تأريخها وليس بالغنائم والفتوح، وإنها لشيء في القلوب فلنعرّفها إنن حين لا تكون إلا في القلوب، وحين يكون كل شيء ظاهر كأنه ينكرها وينفي وجودها وهي يومئذ من الوجود في الصميم.

يوم عقيدة ورجاء:

إن يوم الغار ليوم له عبرته وعزاؤه في كل يوم ولا سيما أيام القلق والحيرة والانتظار..

إنه يوم عقيدة فهو يوم رجاء ويوم نظر إلى المستقبل الذي ينظر إليه من ليس له رضا في حاضر عهده، وحاضر العالم في عهده هذا لا يرضى أحداً من محبيه.. حيثما غلبت الحيرة والقلق في العالم فهناك أمر واحد كن منه على أتم اليقين؛ كن على يقين أن العالم يبحث عن عقيدة روحية! لأنه يضيق بالحاضر وينظر إلى المستقبل، وكل مستقبل فلا محل له من جوائح الصدور إن لم يكن موضع رجاء ومرجع إيمان، وغاية سعى يستحق الكفاح..

وفي التاريخ الإنساني كله لم تقم قط حركة عظيمة على الماضي الذي لا مستقبل بعده، إنما تقوم الحركات العظيمة جميعاً على الرجاء في غد محجوب، أو على شيء يمكن أن يتحقق في حياة الإنسان، وشيء يبقى أبداً موضع الرجاء البعيد..

لقد كان عليّ فتي يستقبل الدنيا، وكان أبو بكر كهلاً يدبر عنها، يوم أعانا محمداً في يوم ثور.. ولكنهما كانا معاً على أبواب غد واحد ورجاء واحد، يستوي فيه الفتي والكهل والشيخ الدالف إلى قبره، لأنه رجاء الإيمان لا رجاء العيان.

المستقبل للإيمان:

ماذا فتح الإسلام لأبي بكر من عوالم الحياة؟.. هل رجع به إلى الماضي

أو أقبل به على المستقبل؟ هل مشى به فى حركة إلى أمام أو قفل به فى رجعة إلى وراء؟.. الحق أن الإسلام مثل المستقبل للشيخوخة كما مثل المستقبل للشباب، وأنفصل من حالة لا تبقى ليتصل بحالة يرجى لها البقاء، وكان يفتح أمام أبى بكر - وليس أمام على وحده - باب الحياة الصالحة فى الدنيا وباب الحياة الخالدة فى الآخرة.. وهكذا كل عقيدة فما هى بعقيدة على أى معنى من معانى الاعتقاد إن كان خيرها كله شيئاً يناله الإنسان فى أيامه.. فلا مناص فى العقيدة من خير وراء أيام الفناء.

ليذكر هذا جميعه من يتحفزون للنهوض، ومن يبتغون الحركة ويقودون الخطوات المقبلة فى عجلة أو أناة.

لن تتحرك أمة إلا إذا فتحت أمامها باب المستقبل، ولن تلتفت إلى الماضى إلا إذا كان فيه التقاء بالمستقبل، ولن تغيره الحياة إلا وهو مبعوث من جديد فى صورة الخلق الجديد.

ليذكر هذا من يحارون فى أمر العالم اليوم وهو غارق فى دماء، ضائق بحاضره، معرض عن ماضيه..

فيم يحار؟

فى طلب المستقبل، فى طلب العقيدة، فى طلب المسوغ للوجود، لأن الوجود وحده لا يكفى الإنسان إلا أن يكون على طبقة مع الحيوان، فالإيمان للمستقبل..

وعسى أن يكون المستقبل للإيمان.

وعسى أن يستجد العالم عزاء باقياً من يوم الغار ومن صاحب يوم الغار.

الفهرس

الصفحة

٢ مقدمة
٩	١ - علامات مولد
١٧	٢ - عبقرية الداعي
٢٦	٣ - عبقرية محمد العسكرية
٥٥	٤ - عبقرية محمد السياسية
٦٢	٥ - عبقرية محمد الإدارية
٦٧	٦ - البليغ
٧٧	٧ - محمد الصديق
٨٦	٨ - محمد الرئيس
٨٩	٩ - الزوج
١١٥	١٠ - الأب
١٢٤	١١ - السيد
١٣٠	١٢ - العابد
١٣٧	١٣ - الرجل
١٤٧	١٤ - محمد في التاريخ

مؤلفات عملاق الأدب العربي

الكاتب الكبير

عباس محمود العقاد

- | | | |
|--|--------------------------------------|---|
| ١ - الله . | ٢٧ - سارة . | ٥٣ - يوميات (الجزء الأول) . |
| ٢ - إبراهيم أبو الأنبياء . | ٢٨ - الإسلام دعوة عالمية . | ٥٤ - يوميات (الجزء الثاني) . |
| ٣ - مطامع النور أو طوطم البعثة الضعيفة . | ٢٩ - الإسلام في القرن العشرين . | ٥٥ - عالم السعد والقيود . |
| ٤ - حبقرية محمد ﷺ . | ٣٠ - ما يقال عن الإسلام . | ٥٦ - مع عامل الجزيرة العربية . |
| ٥ - حبقرية مصر . | ٣١ - حقائق الإسلام وأبطال خصومه . | ٥٧ - مواعيد وقضايا في الأدب والسياسة . |
| ٦ - حبقرية الإمام علي بن أبي طالب . | ٣٢ - التفكير فريضة إسلامية . | ٥٨ - دراسات في المذهب الأدبية والاجتماعية . |
| ٧ - حبقرية خالد . | ٣٣ - الفلسفة الثرائية . | ٥٩ - آراء في الآداب والفنون . |
| ٨ - حياة للمصح . | ٣٤ - الديمقراطية في الإسلام . | ٦٠ - بحث في اللغة والأدب . |
| ٩ - نو الثورين عثمان بن عفان . | ٣٥ - أثر الحرب في الحضارة الأوربية . | ٦١ - حوار في الفن والفلسفة . |
| ١٠ - عمرو بن العاص . | ٣٦ - الثقافة العربية . | ٦٢ - دين وفن وفلسفة . |
| ١١ - معلومة بن أبي سفيان . | ٣٧ - اللغة الشاعرة . | ٦٣ - فنون وشجون . |
| ١٢ - حامي السماء بلال بن رباح . | ٣٨ - شعراء مصر وبتاتهم . | ٦٤ - قيم ومعايير . |
| ١٣ - أبو الشهداء الحسين بن علي . | ٣٩ - أشتات مجتمعات في اللغة والأدب . | ٦٥ - الديوان في الأدب والنقد . |
| ١٤ - خاطمة الزهراء واقفاطميون . | ٤٠ - حياة قم . | ٦٦ - عهد القلم . |
| ١٥ - هذه الشجرة . | ٤١ - خلاصة البومة وتشقرو . | ٦٧ - ردود وحذر . |
| ١٦ - الجلمس . | ٤٢ - مذهب قوى البدلات . | ٦٨ - ديوان يظنه الصباح . |
| ١٧ - جمعاً قصاصك الضحك . | ٤٣ - لا شريعة ولا استعداد . | ٦٩ - ديوان وهج الظهيرة . |
| ١٨ - أبو نواس . | ٤٤ - الشيوعية والإنسانية . | ٧٠ - ديوان كنياس الأصيل . |
| ١٩ - الإنسان في القرون . | ٤٥ - الصهيونية العالمية . | ٧١ - ديوان وصي الأرمين . |
| ٢٠ - المرأة في القرون . | ٤٦ - لسوان . | ٧٢ - ديوان عتية الكروان . |
| ٢١ - حبقري الإصلاح وتعليم الإمام محمد عبده . | ٤٧ - أنا . | ٧٣ - ديوان غابر سبل . |
| ٢٢ - سعد زحلول رحيم الثورة . | ٤٨ - حبقرية العتيق . | ٧٤ - ديوان أخصير مغرب . |
| ٢٣ - روح عظيم المهاجر غاندي . | ٤٩ - العتيقة بنت العتيق . | ٧٥ - ديوان بعد الأخصير . |
| ٢٤ - عيل الرحمن لكواكي . | ٥٠ - الإسلام والحضارة الإنسانية . | ٧٦ - حرائس وشياطين . |
| ٢٥ - رجعة أبي العلاء . | ٥١ - مجمع الأحياء . | ٧٧ - ديوان أشتجان الليل . |
| ٢٦ - رجال عرفهم . | ٥٢ - الحكم المطلق . | ٧٨ - ديوان من دولون . |
| | | ٧٩ - هنتر في الميزان . |
| | | ٨٠ - أنيون الشعوب . |
| | | ٨١ - القرن العشرون ما كان وما سيكون . |
| | | ٨٢ - الفنون والأحياء . |

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)

وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com